

أَمْعَانِي وَأَقْسَانِي الْقُرْآنِي

— تأليف —

المعلم عبد الحميد القرظي

— طبع —

في مطبعة الاحمدية على كره

الهند ١٣٢٩ هـ

إمعان في فقهنا القراء

— تأليف —

المعلم عبد الحميد القرظي

— طبع —

في المطبعة الاحمدية على كره

الهند ١٣٢٩ هـ

فهرس مطالب فصول هذا الكتاب

صفحة	
١	(١) ديباجة الكتاب
٢	(٢) ذكر شبهات الثلث على اقسام القرآن
٣	(٣) طريق الامام الرازمي في الجواب عن هذه الشبهات
٤	(٤) طريق العلامة ابن القسيم رحمه الله في تاويل اقسام القرآن لدفع الشبهات
١٠	(٥) طريق هذا الكتاب في الجواب على سبيل الاجال
١١	(٦) تايخ القسم وجازة الاسم اليه وطرقه المختلفة والدلالة على حقيقة معناه في الاول الامر
١٤	(٧) بيان ان القسم لا يلزمه المقسم به باليضاح معاني كلمات كثر استعمالها للقسم
١٩	(٨) بيان اصل معنى القسم اذا كان فيه مقسم به
٢١	(٩) القسم على وجه الاكرام للقسم به والتكلم والمخاطب
٢٢	(١٠) القسم على وجه التقديس للقسم به
٢٨	(١١) القسم على وجه الاستدلال بالقسم به
٣١	(١٢) القسم على وجه الاستدلال في كلام ديماستينس عظم بلغاريونان
٣٢	(١٣) القسم على وجه الاستدلال في كلام بوليوس الشاعر اليوناني
٣٣	(١٤) شرح دلالات القسم الاستدلالي
٣٧	(١٥) الأدلة المأخوذة من نفس القرآن على ما فيه من لاقام الاستدلالية
٣٨	(١٦) بعض اسباب خفاء الوجه الصحيح في تاويل اقسام القرآن
٤٠	(١٧) ذكر بعض ما في القسم من ابواب البلاغة وطاقاتها
٤٦	(١٨) الفرق بين ما يحسن وما لا يحسن من القسم
٤٨	(١٩) ايضاح ما تجد في الانجيل من النهي المطلق عن الكلف
٥١	(٢٠) الحكمة في تخصيص هذه الوصايا باتباعه
٥٢	(٢١) الفرق في كلمات القسم حسب مواقعها ما يحسن وما لا يحسن
٥٥	(٢٢) خاتمة الكتاب

امعان في قسا القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) سبحن الذي اطلق كل شئ بانه صنع يده - وغذى رفقده - تسبح الشمس لكبريائه ومجده - ويسجد له القمر بجبينه وخرده - يقنهد له البر بغوره ونجده ويحفظ اليه البحر بحرزه ودمه - كما قال تعالى في كتابه تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ان من شئ الا يسبح بحمده ونصلى على محمد رسوله الختار وعبيده وعلى آله وصحبه المعتمدين بحمده وعصده - والتابعين لهم على سوار السبيل وقصده - اما بعد فهذا كتاب في بيان اقسام القرآن وهو جزر من المقد التي جعلتها لذكر الامور الكلية التي احتاج الى ايرادها في كتاب نظام القرآن وتاويل الفرقان بالفرقان لتغني عن التكرار الذي لا طائل تحته وقد جار قسم في كتاب الله تعالى كثيراً واشتبه على الناس معناه وحكته والبحث عنه في كل موضع لا يطبق بكتابتنا الذي بنى على الايجاز فارد ان اتكلم عليه من جهة كلية في جزر مختصر - ولم اطلع على كتاب من القدا في هذا الباب غير كتاب البتيان للعلامة ابن القيم او ما ذكر في التفسير الكبير للعلامة البرازي ومن اتمه رحمهم الله وسنورد منها في خلال

فصول كتابنا هذا ما يقتضيه سياق الكلام والله المأدب الى بل السلام ذكر اشبهات الثلث على اقسام القرآن

(٢) لما كان المقصد الاغظم من هذا البحث ازالة اشبهات اردت ان اذكرها اولاً لا يكون الناظر من قبل على بصيرة بساق الكلام فيتضح له شكل نظامه وغرض سهامه. فاعلم ان اشبهته على اقسام القرآن من وجوه (الف) القسم نفسه لا يليق بجلالة ربنا فان الذي يكلف على قوله بين نفسه ويضعها موضع من لا معول على حديثه وقد جار في القرآن "ولا تطع كل حلاف مهين" فجعل الكلف من الخلال المذمومة ونهى لمسيح الحواريين عن الكلف مطلقاً فقال لهم "ليكن قوكم نعم نعم اولاً ولا تخلفوا"

(ب) القسم في القرآن جار على امور مهمة كالمعاد والتوحيد والرسالة ولا فائدة فيها للقسم لا للمنكر بها فانه يطلب الدليل والبرهان ولقسم ليس في شيء منه ولا للمؤمن فانه قد آمن بها.

(ج) القسم يكون بالذي عظم وجل وقد قال النبي "من كان حافظاً فليحلف بالله وليعصمت" فنهى عن القسم بغير الله فكيف يليق بجلالة ربنا ان يقسم بالملحوق لا سيما باسشيار مثل التين والزيتون -

فهذه ثلث اشبهات ونذكر اولاً ما اجاب به الرازمي وغيره من المتقدمين من ذلك على ما فيه من الضعف لنحذر من التمسك بالعري الواهنة فانه اكبر ضرراً في الدين وابسط لاسنة المعاندين ومع ذلك ندعو ان يكافئهم بما اجتهدوا في الذب عن بيضة الحق وذاره كما ادعوا ان يجعلني من حزب الحق وانصاره -

طريق الامام الرازمي في الجواب عن هذه الشبهات

(٣) قد ذكر الامام الرازمي شبهة الثانية واجاب عنها في تفسير سورة
 وَالصَّفَّتْ فقال "واجاب من وجوه الاوّل انه تعالى قرر التوحيد و
 صحته البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك
 الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر لقسم تأكيد الايما والقرآن انزل بلغة العرب
 واثبات المطالب بالكلف وايمين طريقة مالوفة عند العرب (فيما ذكر من
 نزول القرآن بلغة العرب وكون ايمين طريقة مالوفة عندهم ايضا جواب
 للشبهة الاولى وحاصل هذا الوجه ان القسم انما هو مسبوق بالدلائل
 فالعول عليها واما ايراد القسم فهو للتأكيد المحض كما هو عادة العرب
 والظاهر ان هذا الجواب نيا قضا القرآن فان في اوائل الوحي نرى القسم
 اكثر مما نراه بعد استفاء الدلائل) الوجه الثاني في الجواب انه تعالى
 لما قسم بهذه الاشياء على صحته قوله تعالى "ان الحكم لواحد" ذكر عقيبه
 ما هو كالدليل اليقيني في كون الاله واحدا وهو قوله تعالى "رب السموات
 والارض وما بينهما ورب المشارق" وذلك لانه تعالى بين في قوله "لو كان
 فيهما الهة الا الله لفسدتا" ان انتظام السموات والارض يدل على ان
 الاله واحد فمما لما قال "ان الحكم لواحد" اردفه بقوله "رب السموات والارض
 وما بينهما ورب المشارق" كانه قيل قد بينا ان النظر في انتظام هذا العالم
 يدل على كون الاله واحدا فقلوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد
 (وحاصل هذا الجواب ان القسم ههنا مردف بقول فيه الحجة فالا حجاج بها واما القسم
 فليخص التبيين وهذا الجواب يشبه الجواب الاول وكلاهما ساكن عن

بيان حكمة هذه الصور المتنوعة للقسم فإي فائدة للعدول عن القسم بالله
 إلى القسم بهذه الاشياء الوجه الثالث في الجواب ان المقصود من
 هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام في قولهم بانها الهة فكانه قيل هذا الله
 قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفى في ابطالها مثل هذه الحجة
 والله اعلم" هذا الجواب يخفف جدا كما بعد ما اعترف في الوجوهين الالاهيين
 بان القسم لا حجة فيه قال ان مذنب الخصم كان جديراً بان يجاب عنه
 بما ليس من الحجته في شئ. ثم ذكر من حكمة القسم في تفسير سورة الذرية
 ما يشبه بالجواب عن اشبهات فقال "قد ذكرنا الحكمة في القسم وهي من السأ
 الشريفة والمطالب العظيمة في سورة والصفات ونعيد لها هنا وفيها وجوه
 الاول ان الكفار كانوا في بعض الاوقات يعترفون بكون نسبي غالباً
 في اقامة الدليل وكانوا يفسون إلى المجادلة وإلى انه عارف في نفسه
 بفساد ما يقول وانما يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال كما ان بعض الناس
 اذا اقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة يقول انه غلبني بعلمه بطريق
 الجدل وعجزى عن ذلك وهو في نفسه يعلم ان الحق بيدي فلا يبقى
 للتكلم المبرهن طريق غير اليمين فيقول ان الامر كما اقول ولا اجادك
 بالباطل وذلك لانه لو سلك طريقاً آخر من ذكر دليل خسر فاذا تم
 الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال في الاول ان ذلك تفسير
 بقوة الجدل فلا يبقى الا الكوت او التمسك بالايان وترك اقامة
 البرهان وفي هذا الجواب خلط بين الغث والسمين ونقض لما قال
 في تفسير سورة والصفقت فانه رحمه الله اجاب هناك بان القسم
 يتبعه الدليل وانما كان القسم لاجل التاكيد والامر كذلك فان القرآن

لا يكت على يقين فلو قال ان الدليل المحقق ربما لا ينجح في الخصم اذا
كان قليل المعرفة بالاستدلال و قليل الاعتماد على نظره او متبهما
للتكلم بخلابة بيانه فيحسن في هذه الحالات شوب الحجته بايمين فلو قال
بهذا لكان اقرب) الثاني هو ان العرب كانت تحترز عن الايمان الكاذب
و تعتقد انها تدع الديار بلا قمع ثم ان النسب اكثر من الايمان بكل شيء
و لم يزد ذلك الارتفاع و ثباتاً و كان يحصل لهم العلم بانه لا يحلف
بها كاذباً و الا لاصابه شوم الايمان و لانه المكروه في الازمان
دني هذا الجواب كانه اشار الى سبب كون اليمين طريقتة مألوفة
عند العرب كما مر و قد اصاب في ذلك لو لم يزد عليه ما قال من ان
البنبي اكثر من الايمان بكل شريف كانه بين سبب خوفهم و اراد انهم
اذا اقسموا بكل شريف خافوا سخطه ان كذبوا في يمينهم به و ضعف هذا
القول ظاهر فان اقسام القرآن ربما يكون بما ليس فيه شرف
و القرآن يهدي الى ان لا تخاف الا الله و اتى شوم يخاف
من التين و الزيتون ثم النبي كان يبيع القرآن من الله فالقسم منه
تعالى و هو لا يخاف احداً - فلو اقتصر على الجزء الاول من جوابه و قال
ان العرب كان تحترز عن الايمان الكاذب و تخاف منبتها و تعتقد
ان الرجل لا يحلف كذبا فاذا حلف احد اصغوا اليه كان اقرب
الى ما يجاب به عن الشبهة الاولى و الثانية جوابا ضعيفا، الثالث
ان الايمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل اخرجها في سورة الايمان
مثال قول القائل لنعمة و حق نعمك الكثيرة اني لا ازال اشكرك
فيذكر النعم و هي سبب مفيد له و ام الشكر و يسلك مسلك يقسم كذلك

هذه الاشياء كلها دأى التي اقسام بها في اول الذرئيت (دليل على قدرة
 الله تعالى على الاعادة فان قيل فلم اخرجها مخرج الايمان نقول لان
 الانسان اذا شرع في اول كلامه بكلف يعلم السامع انه يريد ان يتكلم
 بكلام عظيم فيصغى اليه اكثر من ان يعنى اليه حيث يعلم ان الكلام ليس
 بمعتبر فبدأ بالكلف وادرج الدليل في صورة اليمين " هذا الجواب
 يكفى لدفع الشبهة الثانية ولكن يلزم على القائل به ان يبين وجه
 الاستدلال بالقسم به على القسم عليه وهذا مع كونه ظاهرا في بعض
 المواضع كثيرا ما يحتاج الى امعان شديد ولعله لهذا السبب لم
 يعتمد عليه الا في هذه سورة الذرئيت وفي بعض اخر واما في البواتق
 فله طريقان الاول انه ينكر بوجود القسم اذا امكنه الابتكار فرارا عن
 شبهات وارادة على القسم كما قال في تفسير سورة القيمة في ذكر
 لا التي بتداء بها السورة " الاحتمال الثاني ان لا يهنا نفى القسم
 كانه قال لا اقسم بذلك اليوم وملك النفس وكفى اسالك غير مقسم
 اتحسب انا لا اجمع عظامك اذا تفرقت بالموت فان كنت تحسب
 ذلك فاعلم انا قادرون على ان نفعل ذلك وهذا القول ختصار
 ابي مسلم وهو الاصح " هذا القول غير مختار عند العارف بكلام العرب
 فانه لو كان المراد كما فهم لكان وجه القول نفى مجرد القسم لا ذكر الاشياء
 الخاصة كالنفس اللوامة وانفس الجوارى الكس وغيره ثم هذا مخالف
 لاسلوب كلامهم فانهم يستعملون كلمة لا قبل القسم منقطعة كما بينا في تفسير
 سورة القيمة وهذا هو مختار الزمخشري - والطريق الثاني هو القول
 بان القسم للتاكيد والتبني على شرافة القسم به قال في تفسير سورة الذرئيت

و قد عرفت ان المقصود من تقسم التبيين على جلالة المقسم به، و على هذا الاصل قال في تفسير سورة التين "اعلم ان الاشكال هو ان التين والزيتون لهما من الامور الشريفة فكيف يليق ان يقسم الله تعالى بهما فلا جل هذا السؤال حصل فيه قولان" ثم ذكر فوائد هما ان كان المراد منها هذه الاثار و ذكر شرافتهما ان كان المراد منها مسجدين او بلدين. و قد علمت ان التمسك بهذا الجواب مع كونه باذى الخلل لا يزيل الشبهة الثالثة فان هذه الاشياء التي اقسام بها في القرآن، ومنها العاديات ضحى، و اجوارى الكنس، و الليل، و الصبح، و التين، و الزيتون ليست من الجلالة بمكان يقسم بها خالقها و ربها ان كان المقسم لاجل شرافتهما.

طرق العلامة ابن القيم رحمه الله في تاويل اقسام القرآن لدفع الشبهات

(٣٤) لم يضع العلامة ابن القيم كتابه على شكل المجادلة فيذكر اشبهات و يجيب عنها لكنه بحث عن حكمة القسمة في القرآن و بين فيه ما يزيل الوبس و يحسم جراثيم الاعتراض و ركن الى الجواب الذي استحسنته و لكنه مثل الرازمي لم يتمسك به كل التمسك فذبذب بين امرين و هو في كتابه ربما يشرح في تفسير السور التي فيها القسمة و يخرج من قول الولى قول و انى اورد عليك خلاصة جوابه و ذلك على موضع الخلل فيه حسب شرطنا فاعلم انه رحمه الله سلك مسلك الاستقراء فهدى اولاً ان اقسام القرآن كلها باسما و صفات و آيات فقال "و هو سبحانه يقسم بامور على امور و انما يقسم بنفسه الموصوفة

بصفات وآيات المستلزمة لذاته وصفاته واقسامه ببعض المخلوقات
 دليل على انه من عظيم آياته" وبعد ذكر الاشلة قال "اذا عرف هذا فهو
 سبحانه يقسم على اصول الايمان التي يجب على المخلوق معه فهما
 تارة يقسم على التوحيد وتارة يقسم على ان القرآن حق وتارة على
 ان الرسول حق وتارة على الجزاء والوعد والوعيد وتارة على حال
 الانسان" وما له عنده الى الجزاء فاقصر القسم على ثلثة امور وهذه الثلثة
 ما لها واحد وهو صفة تعالى كما ستعلم من قوله عن قريب فبعد هذا
 التمهيد لم يبق له كبير حاجة الى جواب القسم فان القسم بنفسه دلالة على
 القسم عليه المعلوم المتعين وهو احد الامور الثلثة فقال في ذكر القسم
 الذي يتدر به سورة والعديت وسورة والعصر" حذف جواب القسم
 لانه قد علم بان يقسم على هذه الامور (اي التوحيد والنبوة والمعاد)
 وهي متلازمة فنتى ثبت ان الرسول حق ثبت القرآن والمعاد ومتى
 ثبت ان القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به ومتى ثبت
 ان الوعد حق والوعيد حق ثبت صدق الرسول وصدق الكتاب
 الذي جاء به وآجواب يحذف تارة ولا يراد ذكره بل يراد تعظيم
 القسم به وانه مما يكلف به" فمذه الاقسام عنده دلالات على
 صفات الله كما قال في ذكر القسم الذي يتدر به سورة البودج
 "كل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته" ثم قال "والاحسن
 ان يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب لان المقصد التبيين على القسم
 به وانه من آيات الرب العظيمة" وكذلك قال في ذكر القسم الذي
 يتدر به سورة الطارق" والمقصود انه سبحانه اقسام بالسماز ونحوها

وكل منها آية من آيات الدلالة على وحدانية "ثم قال في ذكر القسم
 الذي جاء في وسط هذه السورة "فانقسم سبحانه بالسموات المطر
 والارض ذات النبات وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى
 الدالة على ربوبية" وهكذا قال في ذكر القسم الذي في اواخر سورة
 الانشقاق "وهذه (اي الشفق والليل والقر) وامثالها آيات والى على
 ربوبية مستلزمة للعلم بصفات كماله" ثم قال في جواب هذا القسم
 "يجوز ان يكون من القسم المحذوف جوابه" وهذا لما قلنا انه لا يحتاج
 الى جواب القسم فان القسم عليه عنده معلوم متعين هذا ولا يخفى
 عليك الفرق بين طريق المازي رحمه الله الذي اشار الى
 اجوبة مختلفة ربما يناقض بعضها بعضاً وبين طريق ابن القيم رحمه الله
 الذي عمده الى نهج واحد واجتهدان يعول عليه في جميع الاقسام
 وهذا الطريق حسن. وآلان ذلك على طاك الامر في جوابه فاعلم
 انه رحمه الله اعتمد على صليين الاول انه سبحانه تعالى انما قسم
 بنفسه وآياته وانما القسم بالخلقوات فهو ايضا من باب القسم بذاته
 فانها من آياته. وارد بهذا الاصل ازالة اشبهة الثالثة وهي تعظيم
 المخلوق فوق مكانته ولكنها لم تنزل فان القسم تعلق صريحاً بالخلقوات
 وكونها من آياته و دلائل صفاته لا يخرجها عن كونها المقسم بها
 وقوله "والجواب يحذف تارة ولا يرد ذكره بل يرد تعظيم المقسم
 وانه مما يكلف به" تصریح منه بان سبحانه اقسامه بغير ذاته المقدسة
 و اراد تعظيم بعض مخلوقاته فغاية الامر انه تعالى لم يقسم بها الا من
 جهة شفه لفة ولا باس بان يجعل الله تعالى لبعض مخلوقاته شرفاً

وكرامة لكن اشبهة ليست في محض شرافة بعض الاشياء قرب
صغير كبير ورب ضليل بئيل لاختلاف الاعتبار بل الشبهة
في وضعها موضع ما يقسم به الرب تعالى شانه علوا كبيرا واصل الثاني
الذي اعتمد عليه هو ان الاقسام كلها دلالات على المقسم عليه
واراد بهذا الاصل ازالة الشبهة الثانية كما فعل الرازي رحمه الله
حين ذكره في وجوه أخر فلم يعتمد عليه واما ابن القيم رحمه الله
فاعتمد على هذا الاصل كل الاعتماد وفسر اكثر آيات القسم على طريق
ينظر به دلالة المقسم به على المقسم عليه واذا اشكل عليه الربط جعل
المقسم عليه محذوفا وجعل المقسم والا على صفات الله وغيرها مما
ذكرنا آنفا ومع هذا الوهن في جوابه والتصريح احيانا بان المقسم
لتعظيم المقسم به لقد اجاد واصاب او قد كاد في غير موضع من كتابه

طريق هذا الكتاب في اجواب على سبيل الاجمال

(٥) لا يخفى عليك مما سبق من اقوال العلماء رحمهم الله ان
اسمهم قولا من يقول ان هذه الاقسام دلالات ولكن الغنة
التي لم تتجمل عنهم والمضيق الذي لم يخرجوا منه هو ظنهم بكون المقسم
مشتملا على تعظيم المقسم به لا محالة وذلك هو الظن الباطل الذي
صار حجابا على فهم اقسام القرآن ونشأ للشبهات فنبطه اولاً
حتى يتبين ان اصل المقسم ليس في شئ من التعظيم انما هو يفهم
من بعض اقسامه ثم نبين ان اقسام القرآن بالخلوقات ليست
الا آيات دالة وانها نوع من المقسم بما ين لاقام التعظيمه

وليس من القسم بصفات الله كما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله
ثم نرجع إلى الفرق بين مواقع القسم المحمودة وغير المحمودة حتى
يتبين أن النسي المطلق غير صحيح. فمذه ثلثه مقاصد يتوجه إليها الكلام
في كتابنا هذا. واذ هي يقتضى بعض لتفصيل والبسط في الكلام وعينا
الس ان نبحث عن تاريخ القسم وحاجة الناس إليه فتدبر
وحديثا وطرق التنوع ونبين معاني كلمات القسم ومفهومه الاصل
ومفاهيمه المنشئة الثلثة من الاكرام والتقديس والاستدلال
المجرد عن التعظيم ونورد من نفس القرآن دلائل واضحة على
تاويل اقسامه ونذل على اسباب خفاء هذا التاويل ليتضح
عذر من قبلنا من كبار العلماء رحمهم الله. ونشير إلى بعض وجوه
البلاغة في اقسام القرآن. ثم نذكره وجوه النسي والاباحة
والاستحسان في القسم ونكشف عن تاويل قول المسيح عليه السلام
حين نسي تلاميذه عن الحلف ونلع الماعا إلى بعض بلاغة القرآن
في تميزه بين كلمات القسم حسب مواقع لتعلم بالايحس منه
ذلك وقد ذكرنا فيما قد مناجل مطالب هذا الكتاب اجمالاً فالآن
نشرع في تفصيله والله الموفق وهو نعم الوكيل.

تاريخ القسم وحاجة الناس إليه طرقه المختلفة والدلالة على حقيقة معناه في اول الامر

(٤) ان الانسان ربما يحتاج إلى تأكيد خبره او وعد منه حين
يريد ان يعتمد عليه المخاطب وتطمئن به نفسه لاسيما في الامور العظيمة
كالعاهدة بين قوم وقوم او بين ملك ورجيته او بين افراد

الناس ليكونوا على ثقة بعضهم من بعض فيعلموا الموافق من المخالف
والولي من العدو وهذه الحاجة التمدنية وعتمهم الى طرق و
كلمات خاصة يعبروا بها عن هذا التاكيد فكان ذلك اصل قسمهم
فربما عبروا عنه باخذ اليمين كما علمنا من احوال الروم والعرب
والعبرانيين فاذا اخذ بعضهم يمين بعض عند المعاهدة فصحوا بفرضهم
وتاكيده كما نتم قالوا انا قد وصلنا امرنا ورهنا به ايماننا ولذلك
سموا القسم يميناً وربما صرحوا بهذا المعنى كما قال جاسس

ساودي حق جاري ديدى رهين فضالى

ومن ههنا تضمن القسم معنى الكفالة والضمانة - وهذا معلوم ومعروف
وباق في اخذ اليمين للبيعة وصدق اليد في البيع والشراء ونراه
في امم اخر كالروم والهند ونرى العبرانيين ايضاً انهم عبروا
عن القسم باليمين فجاء في التوراة ص ١٢٣ عدد ٨ "الذين افواهم
تنطق سورا ويمينهم يمين كذب" في العبرانية "اشرفيم دبر سورا
ويينام يمين سورا" والعجب من المترجمين الانكليزيين كيف
ذهب عليهم هذا المعنى فترجموه بقول معناه "اليد اليمينية منهم يد يميني
الكذب" فلم يفهموا من كلمة اليمين لغتهم بل اليد اليمينية وهذا من
افحش الغشرات ويخبر عن قلة التفاتهم الى العبرانية. والعجب
كل العجب انهم في هذا الزمان صلحوا الترجمة المستندة وغير ذلك
كثيراً ومع ذلك تركوا هذا الخطاء الفاحش على حاله. ذلك
وجاء ذكر العقد بصفة الكف في امثال سليمان في التحذير
عن الضمانة ص ٤٤١ "يا بني ان ضمنت صاحبك فصفقت

كفك لغريب" فتشابها بتاتان الامتان في امر العقد و لذلك
صارت كلمة ايمن اسماً للقسم بين العبرانيين كما هي عندنا و ربما
غسوا ايماهم في انار ماء اذا كانوا كثيرين فكانهم اخذ بعضهم
يد بعض و اجمعوا امرهم بما مسم شئ واحد و الماء ابلغ في لمس
و اللصوق و لذلك قالوا بل بالشئ يدي ابي لصق به قال
طرفة

اذا ابتدر القوم السلاح و جدتني فبما اذا بليت بقائه يدي
و ربما اخذوا عطرا فاقسموه بينهم و مسحوا ايديهم فزوا و عبقه بهم
فبوا بقى من الماء و اشهدوا عرف و لذلك سموه عرفا و نشر
و من امثلة هذا الطريق لما هدمت مائري في قصة عطر منشم دهي
ان قوماً سخا لفوا على ان يقا تلوا عدوهم و جعلوا آية الكلف
تعالى عطر باعوه من عطارة تسمى منشم و قصة هذا الكلف
مشهورة حتى جرى به المثل قال زهير

تذركما عسا و ذبيان بعد ما تفلنوا و دقوا بينهم عطر منشم
و كذلك نرى غمس الايدي في العطر في قصة حلف الطيبين التي
نذكرها في لفصل العاشر. و ربما ذبحوا بهيمة و رشوا دمه على
اجسام الفريقين من الكلفاء علامة لموا لا تهم الى حد القرابة
ادلبثا تهم على الكلف حتى يسيلوا مجهم. جاء في سفر الخروج
ص ٢٥٥-٥٥٥ " و ارسل فيثان بنى اسرائيل فاصعدوا محرقات
و ذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران. فاخذ موسى نصف الدم
و وضعه في الطسوس و نصف الدم رشه على المذبح. و اخذ

كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب فقالوا كلما تكلم به الرب
 نفعل ونسمع. واخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال هو
 ذا دم العهد الذي قطعه الرب معكم على جميع هذه الاقوال "
 فترى في هذا القسم انهم عاهدوا بالرب برش الدم على انفسهم
 وعلى المذبح نيابة عن الرب فصاروا حلفاء للرب وهذا كثير
 جاء في سفر زكريا ص ٩ "فاني بدم عهدك قد اطلقت اسراك"
 وربما وصل بعضهم جبلة بجبل الآخر فصار من حلفاءه حتى صار بجبل
 اسما لعقد الذممة والجوار كما جاء في القرآن "بجبل من الله وجبل
 من الناس" وقال امرؤ القيس هـ

اني بجبلك وصل جبلي وبريش نيك رائش نبلي

وذكر الحطينة اصل ذلك فقال هـ

قوم بببت قرير العين جارهم اذا لوى بقوى اطنابهم طبننا

فهذه طرق تاكيد عقودهم بين فريقين ومن الفريقين ثم ربما
 حرموا على انفسهم بعض الهشميات حتى يفعلوا بعض ما اوجبوا على
 انفسهم وسموه نذراً كما نذر المهليل اخو كليب ان لا يشرب الخمر
 ولا يمس الطيب ولا يرحل شعره الى ان ياخذ بشار اخيه
 وقصة مشهورة وكذلك فعل امرؤ القيس وقال بعد ما حل نذره

حلت لي الاخمر وكنت امرء عن شره بها في شغل شاغل

ثم توسع معناه وصار النذر التزام شئ على طريق القسم كما قال

عمر بن معدى كرب هـ

بهم نيزون دمي وانذر ان لقيت بان اشدا

و لذلك سمو النذر يمينا كما قال قبیصه بعد ذکر ایفار النذر
 فاصبحت قد حلت يميني وادركت بنو ثعلب تبلي وراجني شعري
 في ابیات ذكرت في الحکاسته ای بعد ادراك تبلي حل
 نذري ای ما حرمة علی بالنذر ويشبه النذر دعوتهم علی أنفسهم
 او الزامهم اياها سوران كانوا كاذبين في خبر او وعد. كما
 قال معدان بن جواس الكندي

ان كان ما بلغت عنى فلا منى صدیقی وثلثت من یدی لانا بل
 وكفنت وحدى منذرانی رواه وصادف حطامن اعادی قائل
 و مثله ما قال الاشتر النخعي

بقيت و فری وانخرقت عن العلی و لقيت اضيا في بوجه عبوس
 ان لم اشن علی ابن حرب خارة لم تحل يوما من نهاب نفون
 ومن هذا الدعاء بالملكوه لمحبة في الاقسام الدينية فان فيها
 خوف سخط الله و لعنة ان كذب الحالف بعد اشهاد الله علی
 قوله. و ربما كفوا عن شئ من غير شرط و سموه اية كما جاء
 في القرآن " للذين يولون من ناسهم تربص اربعة اشهر"
 ثم توسع استعما لما فصار قولهم آية مرادف اقسمت قال
 امرؤ القيس " وآلت حلقه لم تحلل" و قال طرفة
 فأليت لا ينفك كشمي بطانة لعصب رقيق الشفرتين مهند

وقالت غنينة ام حاتم الطائي
 لعمرى لقد ما عضى الجوع غضة فأليت الا امع الدهر جالعا
 و هذا كثير في كلامهم - يقولون آليت مرادفا لا قسمت و ربما

استعملوا لام التأكيد و قالوا لا فعلن او مثله كقولہ تعالیٰ
 ”وان لم يفتوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم“
 او كقولہ تعالیٰ ”ولينصرن الله من ينصره“ او كقول لبید
 ولقد علمت لتاتين منيتي ان المنايا لا تطيش سهاهما
 قال سيبويه رحمه الله ”كانه قال والله تاتين“ و انما قال هذا
 على طريق التمثيل فانه رحمه الله اراد ان ههنا يمين كما قال في
 ذكر لام القسم ”ومثل ذلك لمن تبعث منهم لا ملأن انما دخلت اللام
 على نية اليمين والله اعلم“ فلم يرد ان ههنا قسما بشئ بل المراد
 ان مجرد قوله تعالیٰ لا ملأن يمين وذلك لان القسم ليس الا التأكيد
 ولا تحتاج الی تقدير المقسم به في كل موضع وعلى هذا الاصل
 كلما ترى في القرآن من لام اليمين واذا جارت قبلها كلمة
 تدل على اليقين والجزم كانت تشابهة بكلمة القسم كما رأيت
 في بيت لبید الذي مر آنفاً ومثله في قوله تعالیٰ ”ثم بدا لهم من بعد
 ما رأوا الآيات ليسبحنه حتى حين“ ومثله قوله تعالیٰ ”قال فالحق
 والحق اقول لا ملأن جنم“ فليس لك ان تقدر مقما به في
 هذه الامثلة التي ذكرناها ولا يليق بها كما يظهر من سياق الكلام
 فكما ذكرنا من طريق اليمين والحلف وتبصرة يد لك على
 ان المقسم به ليس من لوازم القسم حتى تقدره كلما لم يذكر
 انما ارادوا بالقسم تأكيدا محضاً للقول او اظهار عزم وصرية
 الزموا به على انفسهم فعلاً او ترك فعل.

بيان ان القسم لا يلزمه المقسم به بايضاح معاني كلمات كثر استعمالها للقسم

(٤٤) ليس لقسم باسمه او بشعاره من المعاني البسيطة حتى يوضع له اللفظ او لا
 فيظن ان المقسم به اذا لم يذكر كان المراد منه المقسم بالله تعالى - اما القسم التعظيمي نشأ
 من تركيب دواعي العاشرة - وعقائد الدين ويايتك بيان في فصل العاشر
 واما في هذا الفصل فنوضح معاني كلمات كثر استعمالها للقسم تعرف انها في اصلها
 لم توضع للقسم باسمه او بشعاره او بشئ آخر - وهذه الكلمات هو اليمين والذم
 والآلية ولقسم واكلف اما اليمين فقد علمت وجه استعمالها وعموما للقسم
 وما فيها من معنى الرهن والكفالة والضمانة فلا يفيد - واما الذم فهو الابعاد
 والتحذير ومنه الانذار والذير ومنه ابعاد الشئ عنك وجعله لله نصيبا
 بمعنى التحريم وبهذا المعنى يستعمل في العبرانية ومنه تحريم المشتبهات ثم توسع
 للزام الشئ على النفس على وجه القسم كما مر واما الآلية فعناها الاقتصار عن الامر
 فيقال الآلى للمقصر العاجز عن الشئ ثم جار لترك الشئ ومنه الايلاء من النساء
 على وجه القسم - ثم توسع في معنى الزام الشئ سواء كان للترك او الفعل ولكنه
 كثر في الزام ما فيه شوب من المضرة فشاب الذم كما قال ابن زياتة يمتي
 آليت لا ادفن قتلاكم فدخوا المرر وسر باله

ثم توسع وصار مرادها للقسم كما مر في الفصل السابق واما القسم فهو في
 اصله للقطع ومنه قسمت الشئ وقسمته والقطع يستعمل لنفي الريب والشبهة
 ولذلك شواهد كالصريمة والجزم والقول لفصل والابانة والصدع والقطع
 فهذا هو الاصل ثم اختص لقسم من بين هذه الالفاظ بشدة لفصل بالقول -
 واستعماله من باب الافعال لخاصية المباعدة كقولهم "اسفر الصبح" ولا يلزمه

ان يكون له مقسم به سوار كان على خبر او عقد كما قال طرقة في معلقة "اقسم رهبا
لتكتنفن" وهذا كثير في كلام العرب. قالت جنوب في مرثيا المشهورة هـ

فاقسمت يا عمرو لو بنهاك اذا بنها منك امراعضالا

وقال ربيعة السليمة هـ

فاقسمت لا انك احد رعبرة تجود بها العينان مني لقبها

وقالت خرق اخت طرفة هـ

الا اقسمت آسى بعد بشه على حي يموت ولا صديق

وجاء في القرآن "اهولاء الذين اقسمتم لاينا لهم الله برحمة" ومنه قوله تعالى
"وقاسمها اني كلما من الناصحين فدلها بغرور" فان قيل ان المقسم به مقدر وهو الله
تعالى قلنا ان اردت الاحتمال فلا نكره انما قولنا انه غير لازم فلقد رأينا ان المقسم
يكون بالله تعالى وبغيره وربما يكون مجردا عن المقسم به وحينئذ لا يراد به الا التاكيد
والجزم المحض واما الحلف فمعناه القطع والحدة فيشابه كلمة المقسم. يقال سنان
حليف اى قاطع ولسان حليف اى حديد ذلق وعند الازهرى هذا ما خوذ
من الحلف وهو بنات اطراف محددة فتقولم حلف على امر كقولم قطع به وهذا
هو الاصل ثم اختص مثل المقسم بشدة الفصل والجزم في القول ولذلك لا يلزمه
المقسم به الا ترى انهم اذا عقدوا الموالاة بينهم باى طريق كانت سمو حلفا
وقد علمت طرقة المختلفة التي لم يحلفوا فيها بشئ فتبين مما مر بك في هذا الفصل
والذى قبله ان المقسم لا يلزمه المقسم به فضلا عن تعظيمه وتلك هى كلمات
قد كثر استعمالها للمقسم بحيث انه لا يلتفت الى اصول معانيها ولذلك قدمنا
ذكرها تم للمقسم كلمات اخر لم يزل عن معانيها الاصلية فاذا نظرنا فيها وجدنا
انها دلالة على انها ليست فى شئ من تعظيم المقسم به ونذكر هذه الكلمات

في الفصل الآتي -

بيان أصل معنى لقسم اذا كان فيه مقسم به

(٨) بعد ما علمت معنى لقسم المجرد عن المقسم به لا يبعد عنك فهم معناه اذا قسم فيه بشئ فانما هو ضم المقسم به مع المقسم كالشاهد على قوله ولذلك كثر استعمال الواو قبله وكذلك الباء واما التاء فانما هي مقلوبة من الواو كما ترى في تقوى وتجاه فذه الحروف للمعنى وضم الشئ بالشئ ويؤيد هذا التاويل ما علمت من تاريخ لقسم وطرقه فانهم لم يقسموا الا على روس الا شهداء فكانوا شهداء على ايمانهم تأكيدا فان الرجل يحتجب ان يجعل نفسه كاذبا في عيون الناس ويشهد على هذا المراد ما جاء في القرآن في ذكر ميثاق النبيين حيث قال عز من قائل "واذا اخذنا ميثاق النبيين لما اتيكم من كتب وحكمة ثم جاركم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ااقررتم واخذتم على ذلكم اصرى قالوا اقرنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفسقون" اى قد اوثقنا بهذا العهد بشهدى ومشهدكم فلا يسوغ الابكار بعد ذلك الا بالفسق. واصل هذا التاكيد ان المرء اذا قال اشهد به فقد صحح بانه يقول بعلمه ومشهده لا بسامعه فلا يمكن له العذر ان كذب ولذلك قال اخوة يوسف "وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين" واستعمال هذا الوجه في القسم ترى في قوله تعالى "لكن الله يشهد بما انزل اليك انزل بعلمه والملك يشهدون وكفى بالسه شحيدا" اتم في الشهادة اكبر وجوه التاكيد من جهة اخرى وهي ان الرجل اذا قال اشهد ان الامر كذا فكانه قال انا اقول هذا كمن يقوم شاهدا على امره والكذب في الشهادة اكبر اثما واشد ذما

ولذلك ورد النهي عند خاصة في الشرائع كما جار في الاحكام العشرة من التوراة ويشبهه ما ذكر القرآن في مح الابرار "والذين لا يشهدون الزور" على انهم تاويل ثم ترى صريح قولهم في اقسامهم "انا شهد" "والله يشهد" "والله يعلم" وهذا في اكثر اللغات فانما نرى الالم في المشرق والمغرب مع اختلاف كثير في عاداتهم لا يختلفون في انهم اذا قالوا الله شهيد على ذلك او ما يشبهه ارادوا به القسم وقال سيبويه رحمه الله في ذكر لام اليمين "واعلم ان من الافعال اشياء فيها معنى اليمين يجرى لفعل بعدها مجراه بعد توكل "اقسم لافعلن واشهد لافعلن" فصح بان اشهد معناه اليمين وان قولك اقسم لك قولك اشهد ويفصل هذه القضية ما جار في القرآن من التصريح بكون الشهادة والاشهاد يمينا حيث قال تعالى "اذ جارك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنفقين لكذوبون" اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله" فسمى الله الشهادة منهم ايمانهم وكذلك جار التصريح بكون الشهادة بالله يمينا حيث قال تعالى "ويدرر عنها العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين" وحيث قال تعالى "ويشهد الله على ما في قلبه وهو له الخصام" فبين ما ذكرنا ان بقسم بالشئ اصله الاشهاد به وتمايك دلائل اخر على ما قلنا في لفصل الثامن فاما معنى تعظيم المقسم به فذلك مما انضم به في بعض الاحوال فهو من عوارض المقسم وسياتيك ذكره . وبعدهما علمت حقيقة القسم واصل مفهومه فذكرتك المفاهيم التي هي فروع على الاصل وهي الاكرام والتقديس والاستدلال وذكركم بالترتيب لتفهم وجوهها وتميز بين معانيها حتى يسهل لك النظر في اقسام القرآن فتعرفنا على وجهها وتكون على بصيرة في تاديلها .

القسم على وجه الاكرام للمقسم به ولتكنم والمخاطب

(٩) لما كان الصدق من احب سجايا العرب لاسيما اذا عاهدوا على امر واعطوا له ايمانهم واشهدوا عليه فاذا صاروا حلفاء او عقدوا عقدا بحوار او نذروا بامر او فواذمتهم وعدوا الكذب فيها بعد القسم عارا عظيما وذلك كبيرة لا تقسم والحجة التي جبلوا عليها وكان في رهن ايديهم للعقود عندهم آية على انهم يخاطرون لما انفسهم فتضمن القسم مخاطرة لنفس كما مر في الفصل السادس ولذلك كثر قسمهم بقولهم لعمرى اى انا اخاطر على هذا القول جياتى وربما بينوا هذا المراد كما قالت ريطة بنت العباس السلى ٥

لعمرى وما عمرى على بين نعم الفتى اراديتم آل شعثا

وقال النابغة الذبياني ٥

لعمرى وما عمرى على بين لقد نطقت بطلا على الاقارع

وهذا كثير ومن هذه الجهة انضم مفهوم الاكرام بالمقسم به فان لتكنم لا يدل على تاكيد قوله بهذا الطريق الا اذا قسم بما يكرمه ويضن به فهذا هو اصل هذا النوع من القسم ثم تجاوزوه ابى قولهم "لعمرى" او ما يشبهه لما فيه من اكرام المخاطب كانت القائل اراد انى لا قسم بعمرى بل بعمرك الذى هو اعز واكرم على وهذا هو الاصل ثم ربما لا يراى به الا تاكيد القول مع اكرام المخاطب ولما كان هذا احسن فى التجاوز كثر قولهم فى القسم لعمرى ولعمر ابيك او وجدك وبعزتك وامثالها وهذه الكلمات التى ذكرناها كثر استعمالها للقسم فلما حاجت الى نقل السنن ولما كان يهمنى فى هذا القسم النظر الى امور الاول ان المقسم به فى هذه الاقسام وان كان عندك كراميا ومضنونا به ولكن لا يكون مما يعبده ويقدمه كما سترى فى اقسام وينتهى ذكرها

في لفصل التالي الثاني انه اذا اضيف المقسم به الى المخاطب دل على اكرام
كقوله تعالى " لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون " فاكرم الله نبيه بهذا الخطاب ومنه
قوله تعالى " فلادريك لا يؤمنون حتى يكلموك " واذا اضيف الى المتكلم دل على غزوة
ومنعه كانه قال " ان حياتي وعزى يبيع لا يرام - ومن هذه الجهة لا ينبغي بهذا المقسم
بعبارة الخاشعين المتواضعين ولعل المسيح اشار الى هذا الامر حيث قال
عليه السلام فيما نرى عن الكلف مطلقاً " لا تخلف براسك لانك لا تقدر ان تحمل
شعرة واحدة بيضاء او سوداء " الثالث انه لما كان من بعض وجوه تقسيم الدعاء
بالسوء على الخائض كما مر في لفصل السادس ربما انضم بهذا النوع ذلك المفهوم
كان الكالف قال " ان كنت كاذبا ابعد عمرى وابهيت عزتى ولا يخفى عليك
ما ذكرنا ان هذا النوع من تقسيم لا يكون الا باضافة المقسم به اما الى المتكلم او
الى المخاطب ولا يكون الا بالفاظه الخاصة التي ذكرناها ولا يكون الا بما مورع
عزته على المتكلم فبين ان اقسام القرآن بالذريئة والعدية ونحوها الجوارح
وامثاله لا يكون من هذا النوع - واعلم ان هذه الاقسام ليست من جهد ايمانهم
وعلى الاكثر تستعمل لمحض التاكيد بمعنى اقسمت ولذلك ربما قالوا العرased - فلا
يريدون بها تمام معناها الاصلى الا اذا بينوه كما مر في قول ربيعة سلمة والناطقة ثم
ان لم ايماننا غليظة غير ذلك وياتيك ذكرها في لفصل الآتي -

لقسم على وجه التقديس للمقسم به

١٠٠ قد ذكرنا في لفصل السادس دواعي توثيق اقوالهم فربما دعتم تلك الدواعي
الى مبالغة الاستيثار والمغالاة فيه فكانوا يجتمعون للمعاينة بمشهد مع ابداهم
وبذلك خلطوا بالقسمة جهة دنيته وارادوا به جعل الرب شاهداً على قولهم فان كذبوا

فيما اقساموا عليه اخطوه ولما كانت دائرة حكومتهم ضيقة ولم تفرق الامم المتجاورة
 حدود فطرية كاجبال الشامخة والبحور المتلاطمة لم يمنع الجيران عن الاقتتال غير العادة
 فصارت بي احصن معاقلم وربما اتفتت اقوام لم تجمعهم اواصر القرابة على
 خلاف عدد فهاجروا على التعاون. فايما كان من سلم او حرب اذا عظم امرها
 فرزوا الى العهد. ولذلك ترى ابراهيم عليه السلام لما هاجر قومه وسكن في
 بلاد العرب وراه ابن ملك ذاباس ومنعة لابه واستغظه فهاجده على رسم
 خاص لكيلا تكون بينهما حرب وصارا جليظين بهذه العاهدة. والتاريخ مشاهد
 بعظم مكانة المعاهدة في التمدن حتى ترى الآن اعتصام الامم العظيمة بها فاعظم
 بمكانتها في امم قديمة بنيت على الالفه والقهر والتبادل بل الناس اليوم
 كما كانوا بل هم اسور لما جمعوا القهر والاستطالة بالخدع والكذب وصاروا
 قليلي الاعتماد على العهود ومع ذلك يتشبثون بها ولتسمون عند القضاة والولاة
 باسم تعالي وبشعاره فاجدر باقوام قديمة اغلب خلا لما الصدق ان يعتمدوا
 على العهد ويجعلوه بناء لتعايشهم ويشيدوه بما ليس فوقه شئ فلذلك تراهم
 يجتمعون عند انصاهم وبها كلم لتوثيق عهودهم باشهاد اكبتهم على مواثيقهم
 والعرب في زمان جاهليتها كانت كاحدى هذه الامم بل هي بشدهم باسا
 والدهم خصاما كما انها ابراهيم يثاقا واوفاهم ذماما. وكانت الكعبة عظيم
 معابدهم وحرما تها اكبر وازعمهم عن الحرب قطفا ناريا في شهور الحج وياتون
 الى الكعبة من كل فج محرمين راهبين مختلطين في غاية الامن كاخرفان بعد
 ان كانوا اسودا طارية فيلقى العدو والعدو من غير خوف حتى انهم سموا مكة صلاحا
 دام الرحم فاذا حادوا توثيق عهد جاذا الى هذا العبد فيقسموا باسمه العظيم
 على مواثيقهم ومن شركم ربما اقساموا عند انصاهم التي ذبحوا عليها لشفعا تم

عند سعد الأكبر. وكانوا يقيمون أبا هراق دم القربان أو مسح الكعبة كما ستعلم
 ما ذكروا في أشعارهم أو بنفسهم أيديهم في عطر ومسح الكعبة بها كما ترى في حلف
 المطيبين الذي كان قبيل البعثة حين أرادت بنو عبد مناف أن يجعوا أمرهم
 فوضعوا جفنة طيب لا حلا فم عند الكعبة ففمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها
 الكعبة فموا المطيبين وكان النسبي وأبو بكر منهم أو مجرد شهودهم عند البيت
 وعقدهم إيمانهم لديه. فهذا أصل قسمهم الديني. ثم توسعوا فآكتفوا بحب ود
 ذكر الكعبة ومشاعر الحج في إيمانهم وإنما أرادوا بقسم رب الكعبة ومشاعر
 الحج كما سترى التصريح به في بعض هذه الأمثلة التي نذكرها. قال زهير
 بن أبي سلمى له

فاقسمت بآبيت الذي طاف حولها رجال نبوه من قریش جرهم
 وقال أيضاً له

فجمع آمين منا ومنكم بمقمة تمور بها الدمار
 وقال أعشى قيس له

فاني وثوبى راهب الحج والنتى نباها قضى وحده وابن جرهم
 وقال أيضاً له

حلفت له بالراقصات إلى منى إذا محرم خلفته بعد محرم
 وقال الحارث بن عباد له

كلا ورب الراقصات إلى منى كلا ورب النحل والاسلام
 وقال النابغة الذبياني له

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هريق على الانصاب من حبد
 والمومن العائدات الطير تسهما ركبان مكة بين الغيل والسعد

ما قلت من سئى مما اتيت به
 اذا فلما رخصت سوطى الى يدي
 اذا فلما قبضت ربي معاقبته
 وقت بهاصين من ياتيك بالفند
 وقال شاش اخو علقمة الفحل عه
 حلفت بما ضم ابيحج الى سنى
 وقالت غنية الاعرابية تصف ابناها عه
 واما حلفهم بالانصاب فمنه قول المهمل له
 اكلت بالمرودة يوما والصف
 انك خير من تفارين العصا
 كلاً وانصاب لنا عادية
 معبودة قد قطعت تقليعا
 و قول طرفة عه

فاقسمت عند النصب انى لهالك
 بملقة ليست بغرط ولا خفض
 و قول الملتبس عه

اطردتى حذرا الجبار ولا
 وانسد والانصاب لا تل
 وقال رشيد بن ربيع الغزى عه
 حلفت بما زرات حول عوض
 وانصاب تركن لدى السعير

اي حلفت بدمار جاريات واقسم بالانصاب قليل جدا فكان جل اقسامهم
 الموكدة بالكتابة ومشاعر الحج فان العرب مع اختلاف دياناتهم فى الجاهلية لم يختلفوا
 فى تعظيم هذا البيت العتيق وعلوا انه اول بيت امد الذى وضع للناس حتى
 انك ترى النصارى منهم كانوا يقسمون به - قال عدى بن زيد وقد تنصر
 فى الجاهلية عه

سعى الاعداء لاپالون شرا
 عليك ورب مكة والصليب
 وقال الاخطل وكان مجاهرا بنصرانية عه

حلفت لمن تاق له الهدايا ومن حلت بكعبة المنذور
وقال ايضاً ٥

لقد حلفت بما اسرى ابيح له والناذرين ومارالبدن في الحرم
وقال ايضاً ٥

اني حلفت برب الراقصات وما اضحى بكمة من حجب واستار
وبالهدى اذا احمرت مزارعها في يوم نسك وتشريق وتبخار
فقرى ما ذكرنا انهم اذا اجتهدوا بهنم حلفوا بالكعبة ومشاعر الحج وبذلك جاء التصريح
منهم. قال حسان بن ثابت الانصاري فيما قال قبل اسلامه ٥

اني ورب الخيصات وما يقطعن من كل سبج جدد
والبدن قد قربت لمنحربا حلفة برايمين مجتهد،
وقال عارق الطائي ٥

فاقسمت هدا بالمنازل من منى وما سحقت فيه المقادم والقل
وبقي ذلك في الاسلام قال الفرزدق ٥

الم ترني عاهدت ربي واني لبين رتاج قائما ومقام
على حلفة لا اشتم الدهر مسلما ولا خارجا من في زور كلام
وقال الحلي ٥

لعم الراقصات بكل فحج من الراكبان موعدا مناها

فتلك جل اتسامهم الدينية ولا يخفى عليك انهم لم يريدوا بها الا الشهادة الالهية
الذي جلوه شاهدها وبذلك جلوه وكيلا وكفيلا على العقود. ومرادهم انهم ان كذبوا
بعد ذلك اخطوا الله كما صرح به النابغة في ابيات مرت في هذا الفصل واما مراد
الصالحين من اشهاد الله تعالى فليس الا اعتمادهم وتوكلهم على ربهم وانظار جدهم

في شهادتهم كما سترى في امثلة تجدها في آخر هذا الفصل . وانا ذكرت العرب
 في ايمانهم الكعبة والنحر عندها ومسماها تأكيد المعنى الاشهاد واطارة الى طريق قسم
 بالاد عند بيته ولذلك ترى زهير السبي المنخر "متسمه" وانه هناك تجمع ايماننا .
 واذ كان لقسم بعض اسم الرب عاما لا ينتبه له بينوه بذكر اصله وصوروه ببيان شكله
 ليكون اوقع في القلب . وهذا المراد الذي نمنا من احوالهم واشعارهم يورده تصحيح
 باشهاد الله تعالى في ايمانهم فيقولون "واحد شهيد" "واحد يعلم" او ما يشبهه . كما قال
 عمرو بن معدى كرب

اسد يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسى باشقر فريد
 وقال الحارث بن عباد

لم اكن من جناتها علم الله واني محسرها اليوم صال
 او كما صرح النابغة الذبياني في ذكر قصة الحية وجليتها الذي لذعت ابنة فمات ثم
 صاحته على ان تعطيه دية ابنه فلما كاد الرجل ان يستوفي الدية هم بقتلها ولكن
 وقاما اسد ضربته فحينئذ دعاها للعهد مرة اخرى فذلك يذكر النابغة بقوله

فقال تعالى نجعل الله بيننا على ما لنا او تنجزى لي آخره
 فقالت يمين اسد افعل اني رايتك مسحورا يمينك فاجره

او كما صرح به النبي في خطبة البلاغ فقال بعدما بلغهم عوازم الامور "الا اهل بلغت
 اللهم اشهد" فجعل الرب شاهدا على ما عاهدتهم به او كما قال حين رجع اليه
 ابن اللببية الازدي وقد استعمل على الصدقة واخذ الهدايا فاسخط النبي فبعدهما اجرهم
 النبي تبعات العلول رفع عليه السلام يديه الى السماء وقال "اللهم بل بلغت"
 ثلث مرات فهذا رفع اليد كان لاشهاد الله تعالى على ما قال كان قال اللهم
 اشهد . وهكذا ترى اشهاد الله برفع اليد الى السماء في قصة ابراهيم عليه السلام

جاء في سفر تكوین ص ٢٢٢ "فقال ابرام (ابراهيم) لملك سدوم رفعت يدي
الى الرب الاله العلي مالك السماء والارض ٢٣٠ لا آخذن لا خيطا ولا شراك نعل
ولا من كلها هو لك" اى اقسمت بالله على ذلك واشهدته وعاهدته ورفع اليد
في الصلوة للعهد والشهادة وتفصيل ذلك في كتاب اصول الشرائع - او كما صح
به القرآن في غير موضع وقد مر امثلة في لفصل الثامن وجملة الكلام ان الايمان
الدينية ايضا اصلها الاشهاد وانما اختلط بها معنى لتعظيم من جهة المقسم به لامن
جهة محض الاشهاد الذي هو انظر معنى المقسم بالشئ وتوضح هذا الامر من نوع آخر من
اقسام المقسم التي اشهدوا فيها بالمقسم به على وجه الاستدلال لا غير وهو مسلك
لطيف من البلاغة ونذكره في لفصول الآتية -

المقسم على وجه الاستدلال بالمقسم به

دال) قد تبين ما ذكرنا انهم كانوا يقسمون بالشهادة من انفسهم او بالشهادة بآ
تعالى واذا كانت الشهادة بالله اكبر الشهادات كثر المقسم بها ولذلك نطن من قتل
التفاته الى اساليب الكلام وفنون بلاغة ان الاشهاد لا يكون الا بالمعبود وعلى
جهة تعظيم ولكنك اذا سرحت النظر في كلام العرب وغيرهم وجدت انهم ربما اشهدوا
باشيخار لم يعبدوه ولا عظموه وانما ارادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهدا على
اقوالهم بل ربما تجمع جهة الاستدلال بالاقسام الدينية ايضا وسياتي ذكره في لفصل
الخامس عشر واما ههنا فانما نذكر امثلة المقسم الاستدلالي ونوضح مفهومه - فنهنا ما قال
ابو العريان الطائي يمدح حاتم الجواد

قد علموا والقدر تعلمه ومستهل الغرار مطرد
ان ليس عندهم اعترار طارقا لديك الاستدلال ما مدد

ومنها ما قال الراعي ٥

ان السماء وان الريح شاهدة
لقد جزيت نبي بدر بعفتها
ومنها ما قال النابتة الذبياني ٥
وايخيل تعلم انا في تجادنا
ومنها قول عشرة ٥

وايخيل تعلم والفوارس انني
فرقت جمعهم بطعنته فيصلى

فقد رايت في هذه الامثلة انهم اشهدوا بالقدور والمدية والسماء والريح والارض
والايام والبلد وايخيل والفوارس وليس المراد الا انك لوسالتهما ونطقن لشهدن
على دعوانا ومن هذا الاسلوب ما قال لفضل بن عيسى بن ابان في وعظبه
سئل الارض نقل من شق انهارك، وغرس اشجارك، وجنى ثمارك، فان لم تجبك
حوارا، اجابتك اعتبارا-، ولعل هذا الكلام مأخوذ من صحف ايوب عليه السلام
قال ص١٤٤ - ١٠ "فاسأل البهائم فتعلمك، وطيور السماء فتجبرك، ادكلم الارض
فتجيبك، ويحدثك سمك البحر- من لا يعلم من كل هولاء ان يدب الرب صنعت هذا،
الذي بيده نفس كل حي وروح كل انسي" ومثل هذا ما جاء في صحف موسى عليه السلام
سفر تثنية ص٣١٩ "اشهد عليكم السماء والارض قد جعلت قد امك الحيوة والموت
الكبرية واللعنة فاخر احيوه لكي تحي انت ولسلك" فاراد بهذا الاشهاد ان عمدي
هذا بكم لا يؤخذ سرايل نجعله مشهودا ومشتمرا فان نقضتموه لزمكم عاره دائما ابدا
فتي ما اظلمتكم السماء واقلمتكم الغبراء، جارتمكم اللعنة والعذاب من فوقكم وتحكمكم- فضرب السماء
والارض مثلاً لردام العهد ولزوم ذلك لنقض فكانه عليه السلام اقام عليهم شامدين
لا يقلتون منها ابدا وآيتين لا تغربان عنهم-

و ما یجلی اشبهه عن لقسم الذی یشهد فیہ بما یینطق بلسان الحال انهم کما اشهدوه
 بکلمة "یشهد" و "یعلم" او ما یشبههما فکذلک اشهدوه - بکلمات خصت بالقسم اولضت
 له مثل وادقسم وکعم او ما یشبههما فان لم یطمئن قلبک بالامثلة السابقة وودک اقتا
 صریحة بامورناطقة بلسان الحال فمنها قول عودة بن مرة الذلی ۛ

وقال ابو امامة یا بسکر فقلت ومرتة دعوی کبیر

یستحز الشاعر بابی امامة علی استغاثة بقبيلة بکر فقال هذه دعوی کبیرة ای ما اصغر
 من یدعوهم لنصره فاقسم بشجرة صغیرة لا توودی من یلوذ بها وضرها مثلاً لا ضعف الا
 لماذا ویتضح هذا المعنی ما قال الوجدب الذلی ۛ

وکنت اذا جارد عالمضوفة اشترحتی بنصف الساق میرزی

فلا تحب جاری لدی ظل مرتة ولا تحسبه فقع قاع بقرفته

و منها قسم الهجرس سین قتل جاسا قاتل ابيه فقال "دفرسی واذنیه ورمحی و نصلیه
 و سیننی و غوریه لایترک الرجل قاتل ابيه و هو یظن الیه" فاقسم بهذه الاشیاء استدلالاً
 بها کانه قال فکیف اترک قاتل ابی وانا قادر علی الکر و الفرد الطعن و الضرب فذکر
 فی قسمه ما یصدق دعواه ویستدل به علی وجوب ما اراد به و منها قسم طرفه ۛ

ورقة ذی القربی وجدک اننی متی یک امر للکثیة اشهد

اراد انه کیف لا یشهد مجلس ذوالقربی اذا اجتمعوا لامر کبیر ولا یراعی منزلة الرحم
 و هی عظیمة عندهم وکانوا ینشدون بالسد و الرحم فاقسم بها استدلالاً علی لزوم مشهده
 و منها قول اکھمین بن حمام یرثی نعیم بن الحارث خلیله ۛ

قلنا خمسة ورموا نعیما، وكان یقتل للفتیان زینا

لعمرباکیات علی نعیم لقد طبت رزیتة علینا

فلم یقسم بالباکیات الا لان حاله من یشهد علی جلالة هذه الرزیتة و هذا النوع من القسم

وان لم يكثرنى كلامهم لدقة مذهبه ولغلبة اقامه اُخرو لكنه طريق واضح واسلوب خاص
 يجمع ابوابا من البلاغة كما سيايتك بيانها في لفصل السابع عشر ويوجد في العرب
 والجم ونذلك على عمومه بايراد بعض الامثلة من كلام اليونانيين -

اقسم على وجه الاستدلال في كلام ديماستينس اعظم بلغا يونان

(١٢) كانت اليونان في اول امرهم على حرية كاملة لم يملكهم ملك بل يدور امرهم
 على الجمهورية حتى نشأ فيهم فيلبوس ابواسكندر الاعظم فتملك عليهم. ولكن لم يستقر
 حكمه الا بعد مشاجرات باجمهور وكان يحرضهم عليهما اعظم خطبا ثم ديماستينس الشهير
 فلما هزم فيلبوس. قام هذا الخطيب على اهل اثينة وهي عاصمة بلادهم. والتقى عليهم
 خطبة الطنانة، سيلهم على هزيمتهم ويدهم على القاء نفوسهم الى الهلاك لا تقار حريتهم
 وكان خطيب آخر يسمى سكينس يمنعهم عن مخالفة الملك. فقال ديماستينس ر ا اذا
 على سكينس وما دعا اهل اثينة -

” ايها الاثينيون انكم لم تكونوا على الباطل حين خاطرتم بنفوسكم في القتال عن حرية
 يونان وسلامتها، وفي ذلك لكم اسوة في اسلافكم. فانهم لم يكونوا على الباطل الذين
 قاتلوا على مراثن. الذين قاتلوا على سلامس، الذين قاتلوا على فلاطى، انكم لم تكونوا
 على الباطل. كلا، لم تكونوا، اقسام بالذين خاطرنا بنفوسهم على معركة مراثن.
 الذين من اسلافكم القوا بنفوسهم الى الهلاك على ميدان مراثن، الذين كانوا
 في الحرب البحرية عند سلامس وارلهميسم والذين كانوا الاعداء على فلاطى فيا
 سكينس ان اهل البلد لم يكرموا الفائزين منهم فقد بل اكرموا هم جميعين باكرام
 جنازتهم اكراما جمهوريا“

يعنى لم يكرموا هم على فوزهم بل على محاماتهم واستماتهم للحرية فلكذلك انتم وان

لم تغوزوا فقد بذتم نفوسكم للدفاع عن الحرية - فانظر في هذا القسم كيف مثل اسلامهم
 وفعالهم بين ايديهم بيلاً قلوبهم بالفخار لم عندهم ففرض لم مثلاً وجعل حسن مساعيم
 شامدا على حسن مساعاة انخاطبين - واخرج الكلام مخرج القسم الذي بنى على التاكيد -
 واشتهر هذا القسم ببلاغته واستجاده السلف والخلف من الناقدين - ولكن اري الناظرين
 منهم اخطاؤا كما اخطا علماء ونا فان لاجنوس اليوناني ، الذي نثار بعد ستمائة من
 ديماستينس وكان معلماً للبلاغة في اثنيه ومشهورا بفرارة اعلم في زمانه - ذكر هذا القسم
 في كتابه على البلاغة وقال فيه ان حسنه في غاية تعظيم المقسم بهم فان ديماستينس
 جعلهم بمنزلة الالهة وانكر على من قال ان هذا السلوب ماخوذ من قول الشاعر بوليوس
 الذي اقسم باكليله - واني اذكر قسم بوليوس ايضا ليكون مثالا ثانيا وتعلم ان الراي الذي
 انكره لاجنوس هو الراي القويم -

القسام على وجه الاستدلال في كلام بوليوس الشاعر اليوناني

(۱۳) كان من سنن يونان في زمان حريميم انه اذا فعل احد منهم امرا عظيما
 ما فعله عصبوا براسه اكليل تشريفا لقدرة واعترافا بحضه وكان الشاعر بوليوس
 نال منهم هذا الاكرام في حرب مران لما ابلى فيها بلا حسنا - ثم بعد ذلك اتهم بعض
 حاده بانه ساخط بالقوم ليزرع بهذه التهمة بغضه في قلوبهم فازاح بوليوس هذا النطن
 عن نفسه بقول ترجمته

لاوا كليلي الذك
 نلت لده مران
 لايراني شامت
 اضم سخطا كامنا

فاقسم باكليله الذي ناله من ايدي قومه استدلالا على عدم سخطه بهم كانه قال كيف
 اسخط على قومي بعد انهم اكرموني بهذا العز - فترى في هذا المثال كما رأينا في امثله

اخران لقسم لا يختص بالآله وبذلك يندم ما نبى عليه لاجنوس رأيه وتبين لنا ان من
 جعل قسم ديكستينس مشابها بقسم الشاعر بوليوس اصاب المراد فانها استعماله على وجه
 الاستدلال وضرب مثل وليس المراد منه تعظيم المقسم به فان كان المقسم به في نفس الامر
 عظيماً فهذا من محض الاتفاق ولا يتعلق به غرض لقسم. محض لقسم ساكت عن عظمته الا
 ترى عروة بن مرة الذي مر شعره في الفصل الحادي عشر كيف اقسم بالمرثة وضربها مثلاً
 لغاية الذلة والضعف.

شرح دلالات لقسم الاستدلالى

(١٢) بعدما وقفت على امثلة لقسم الاستدلالى من الشر والنظم والعرب
 ولعجم وتبين لك انه اسلوب خاص من البلاغة يزيدان بنوع كك في هذا الفصل
 ما فيه من الدلالات الاستدلالية التي ذكرناها في الفصول السابقة هشتاتا تفهما
 كل لفهم فان ذلك من مهمات مباحث هذا الكتاب ثم سجد زياده عليه حين نذكر
 ما في لقسم من ابواب البلاغة فاعلم انهم اذا شهدوا على وجه الاستدلال ربما
 ارادوا به شدة وضوح المقسم عليه كما ترى في قول الراعى "ان السماء وان الريح
 شاهدة والارض تشهدوا لا يام والبلد" يعنى به ان الامر بلغ غاية الشهرة والمعروفة
 حتى ان كل شى يشهد به فذمى في آفاق السماء واقطار الارض دجرت به الريح في
 كل جانب وبلغ كل بلد وكفلت الايام بابقائه على صفحات الدهر. وغاية التاكيد
 في ان هذه الاشياء التي لا روح لها تشهد به فكيف باهل السمع والبصر والنطق
 وهذا بحسب الظاهر مبالغة ولكن نبى على الصدق فان المراد به غاية الشهرة وعموم العلم
 به ويشبه ذلك ما مر من قسم موسى عليه السلام حيث اشهد السماء والارض. وربما
 ارادوا به ضرب مثل على وجه التشبيه ادعاءً من المتكلم كما ترى في قسم عروة بن مرة

فانه ضرب المرحة مثلا بقبيلة بكر التي استغاث بهم ابوامامة فشيهم بالمرحة و هذا محض الادعاء و لكن الدعوى اذا كانت بطريق الاشارة تعلقها بالمخاطب بالقبول مثلا تراه في التشبيه والكناية كما بينوه في كتب المعاني و نرجع الى هذا البحث في لفصل السابع عشر انشاء الله تعالى . وربما ارادوا به تائيدا للقول فاشهدوا بهم به لكونه موكدا للمقسم عليه كما ترى في قول بوليوس فانه اشهدوا بكليده الذي اكرسه به قومه وهو اقصى الغاية عندهم في التعظيم فكانه قال في رد قول مخالفه اني بعد هذا الشرف الدائم كيف ينظن بي اني اسخط بهم . وكان في هذا الاستدلال ضعف فانه يمكن لمخالفه ان يقول انت مع هذا الاكرام لعظيم تبذلت وصرت جاحدا لنعمة فاكد قسمه بالاكليل بذكر شرف نفسه فقال اني اقينته في اشهر حروبهم التي بدت فيها منازل سراة القوم فكنت فيها من الطراز الاول . فبعد هذا التاكيد لم يترك خصمه الاصل حسود ليسى انظن باكرام و لكن في هذا الاستدلال لا يتم التقريب بين الدعوى و دليلها . وربما ارادوا به حجة قاطعة على قولهم بذكر امر جامع بين المقسم به و المقسم عليه كما ترى في قسم ديماسينس فانه ذكر حسن فعال اسلاف المخاطبين وهم لا يشكون فيه و احتج به على حسن فعال الذين ابتغوا اسلافهم ولذلك صرح اولابان كرم اسوة في اسلافكم و هذا العزم احسن وجوه هذا النمط من القسم .

الأدلة المأخوذة من نفس القرآن على ما فيه من الاقسام الاستدلالية

(١٥) بعد ما تبين لك ان القسم اصله الاشهاد و انه لا يراد منه لتعظيم الا اذا كان باسمه تعالى و بشعاره و علمت انه ربما يكون محض الاستدلال . لا يخفى عليك ان اقسام القرآن التي نبي عليه المعترض المشبهتين الاخيرتين ليست الا للاستدلال و الاشهاد بالآيات الدالة فان قال قائل هب ان اصل القسم

هو الاشهاد ولكنه لكثرة استعماله للتعظيم صار كما منقول واصله كالمذبول ولذلك
 نبى عن لقسم بغيره تعالى فلا يصار الى الاصل الا بدليل واضح بين - قلنا سلمنا
 ولكننا لم نذهب الى هذا المعنى الخاص لاقام القرآن الابدالة القرآن من وجوه
 كثيرة وودونك بيانها. الا اول ما علمنا من سنة القرآن من استعماله لبعض الكلمات
 مرة للعباد واخرى لله تعالى وحينئذ يميز بين وجوهها حتى لا يكون مخالفا بجلالة ربنا
 جلت عظمتها مثل كلمة الصلوة فانها الدار من العبد والرحمة من الله تعالى وكلمة لشكر
 فانها من العبد هي الاعتراف بالنعمة ومن الله تعالى هي قبوله احسانات من عبده
 وهكذا التوبة والسخط والمكر والكيده والاسف والحسرة وغيرها - بل ما من كلمة لا تميز
 بين وجوه معانيه اذا استعملت لله تعالى - ويؤخذ باحسنها ويترك ما لا يليق بذاته
 المقدسة. وقد علمنا الوجوه الكثيرة التي قسم فحلناه على وجه يليق بجلالة ربنا واخذنا بما
 "هو خير واحسن تاويلا" والثاني، انتهى اليه من حل النظر على النظر وتفسير الآيات بعضها
 ببعض فانك ترى القرآن يذكر الامور الدالة تارة على اسلوب لقسم بها واخرى
 على اسلوب الآيات والعبارة وكلها اشهاد لمن يتفكر فيها - قال تعالى "ان في خلق السموات
 والارض واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس
 وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة،
 وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون" ومثل هذا
 كثير فليذكر الله تعالى آياته ويحجج بها - ثم ترى هذه الآيات اشهد بها القرآن على اسلوب
 لقسم فاشهد بالسماء والارض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والفجر والضحى،
 والرياح والسحاب، والجبال والبحر والبلد، والانسان والوالد والولد، والذكر والانثى،
 والشفع والوتر - فكونها آيات دالة لا نظير ولا سبيل الى ارادة تعظيمها والثالث
 ما يدلك عليه نفس المقسم به فان العاقل لا يتوهم ان الله تعالى يضع مخلوقاته موضع

المعبود المقدس لاسيما الذي ليس له كبير تقدر كالمخل العاديه والريح الذارتيه و
قد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والارض والشمس والقمر والنجوم وغيرها
مسخره لذلة طائفة نفى نفس لقسم بها دلالة على ان المراد محض الاشهاد بها. والآن ليع
ما ترى من المناسبة الظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه فان القرآن وضع اكثر هذه الاقسام
بحيث لا يخفى على العاقل جهة دلالتها على ما اقسام عليه ولذلك ترى صاحب التفسير
الكبير رحمه الله مع نظنه بان المقسم للتعظيم وتكلفه لبيان فضائل التين والزيتون لم
تخف عليه جهة عامته في دلالة الاقسام التي جارت في اول سورة الذريرت فقال
انها كلها دلائل اخرجهما في سورة الايمان“ ولونامل في سائر اقسام القرآن التي جارت
على وجه الاستدلال لاختر هذا التأويل في جميعها ولتخامس ما ترى من تقسيم
المقسم به على طريق تقيم الآيات الدالة كما قال تعالى ”فلا اقسام بما تبصرون وبما لا
تبصرون“ فلم يترك شيئاً الا وقد اقسام به كما قال ”وان من شئ الا يسبح بحمده“
فلم يترك شيئاً الا وقد انطق بحمده واشهده بحمده ويشبه هذا التقييم استعمال التقارين
حيث اقسام بالليل والنهار والارض والسماء فكيف يظن ان الله تعالى عظم كل شئ
واسبيل الى جعله آية دالة ظاهر فلا يصار الا اليه والسادس ما تبع المقسم به
من التبيين على كون المقسم به دليلاً للعقل كما قال تعالى ”والفجر، وليال عشر،
والشفع والوتر، والليل اذا يسر، بل في ذلك قسم لذى حجر.“ فمذه الجملة الاخرة
مثل ما تجد كثيرا في القرآن بعد ذكر الدلائل كما جارت في سورة النحل ”ان في ذلك
لاية لقوم يعقلون“ او كما جارت في سورة طه ”ان في ذلك لاية لاولى النهى“
او كما جارت في سورة آل عمران ”ان في ذلك بعة لاولى الابصار“ وهذا كثير. فمكذا
هنا بعد ذكر الاقسام بنه على كونها دلائل لذى عقل وبصيرة ويشبه ذلك ما جاء
من التبيين بعد المقسم في سورة الواقعة حيث قال ”فلا اقسام بمواقع النجوم“

وانه لقسم لو تعلمون عظيم" اى ان فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة فصيح بعظمة القسم
لا بعظمة المقسم به والسابع ما ترى في ذكر المقسم به على صفة خاصة تشير الى جهة
الاستدلال كقوله تعالى "والنجم اذا هوى" وقوله تعالى "فلا اقسم بالبحر الجوى
الكنس" وقوله تعالى "والصفت صفا فالزاجرات زجرا فالتليت ذكرا" وقوله تعالى
"والذريت زروا فاطمخت وقرأ فاجاريت يسرا فالمقسمت امرا" وقوله تعالى
"ولا اقسم بالنفس اللوامة" وغيرها فهو شىء الثريا وخنوس النجوم - وصف الملئكة و
ذروالرماح وتقسيم الامور ولامته النفس اقرب الى الاستدلال منها الى التعظيم
والثامن ما سبق مقسم به من صريح ذكر الآيات الدالة ثم يعبر عن المقسم به على وجه
يشير الى تلك الآيات كانه ممد من قبل لما اريد من وجه الاستدلال -
وهذا مما يتنزه المتدبر في نظم القرآن - وتوضح ذلك بالمثل قال تعالى في سورة
الذريت "و في الارض آيت للموقنين و في انفسكم افلا تبصرون" و في السماء زكركم
وما توعدون" اى ان لكم فيهن آية على الربوبية والدينونة كما فصل ذلك في
غير موضع من القرآن فبعد ما ذكر ان الارض والسماء قد اشتملت على آيات الجزاء
بل على نفس الجزاء جار بقوله "فارب السماء والارض انه (اى الدين والجزاء
وليس المراد به القرآن كما توهموه) حتى مثلما انكم تنطقون" فلا يخفى ان هذا المقسم
مع دلالة على التقديس لكونه اشهادا باسمه تعالى قد تضمن الاستدلال بآيات
في الارض والسماء لما عبر عن المقسم به على صفة تشير الى ما سبق من صريح
الاستدلال بالآيات الدالة ولما كان وجه التعظيم في هذا المقسم اظهر وكاد يشغل
عن وجه الاستدلال حسن التمهيد له من قبل - و في هذا القدر كفاية انشار احد تعالى -
فان سأل سائل كيف خفى الصواب على العلماء ام كيف لطى القلب بهذا القول
المبتدع اجبناه بما ذكره في الفصل الآتي -

بعض أسباب خفاء الوجه الصحيح في تاويل اقسام القرآن

(١٦)، ما ذكرنا من اقوال العلماء في الفصول السابقة ترى ان هذا المعنى للقسم ليس بدع بيدا انه خفي عليهم بعض وجوهه ومعانيه فلم يمسكوا به كل التمسك فاما ان تركوه في بعض المواضع واما خلطوا به معنى آخر ولذا ذكره هنا بعض أسباب الخفاء، لينظر عذرهم فالسبب الاول انه في بعض المواقع كان المقسم به في نفسه شريفاً مثل القرآن والطور وكتة ادشمس والقمر والنجوم او العصر والليل والنهار فلم يحتاجوا الى جعل الاقسام به استدلالاً وقد ظنوا ان المقسم بالشريف العظيم عام شائع - فاذا وجدوا المقسم به في احتمالات اخذوا منها ما يشبه بالشرافة وبهذا السبب منعوا عن التعرّيج الى سمت الصحيح وذهبوا من تقسم في مذاهب عام كما ان الماء يجري الى الخفض ان لم يصرفه صارف، والسبب الثاني، ان الحكماء بنجتهم الامور الكليّة فلا يعجبهم راي يتخزم بعض جوانبه ووجه الدلالة في الاقسام مع ظهوره في بعض الامثلة كان خفياً في بعضها ولما لم تبين لهم وجه الدلالة فيه زعموا ان هذه الكليّة لا تصح هنا وليس من داب اكثرهم ان يقرأوا بالعجز ويحولوا بعلم الى الله تعالى كما ترى ذلك في مسألة نظم القرآن فانه ظاهر واضح في اكثر المواضع ولم يشك كل الاشكال الا في قليل فلو اعترفوا باجهل كما فعل بعضهم كان حرياً بهم ولكن تراهم لم يعتمدوا على وجود النظم وانما ارادوا بذلك انه ليس كلياً نظن العوام ان لا نظم في القرآن وكلها اقتصاب - والصواب ان نتحرى في كل امر ما هو الاصل والاحسن وقد دلت عليه دلائله وهدت مخائله وترجج جانبه وتوضح لاجبه ونكون كما قال تعالى "الذين يستمعون القول فيتبعون حسنة اولئك الذين هم هم الله واولئك هم اول الالباب" فان اشكل علينا بعض وجوهه نسبناه

الى قلة علما وسجل اسديسيرا بعد عشر وجبرا بعد كسر العلوم متزايدة واسديسيرا
من يشار. فخص غموض جمة الاستدلال في بعض الاقسام لا يصرنا الى راي
باطل مع سخافة الآتري الآيات الدالة ليست كلها ظاهرة الدلالة بحيث لا
تحتاج الى تامل والقرآن صحح بذلك وندب الى الفكر والتدبر فيها بل صحح بانها
لا يفهما الا العاقلون المتقون كما جار كثيرا في القرآن والصحف الاولي ومع ذلك
لا تشك في انها دلائل قاطعة ورجح ساطعة فهذا التحري هو الخطوة الاولي لتامل
واعمال لعقل حتى تحل الاشكالات ويطمن القلب بعد العلم. واني بحمد الله تعالى
لم اطمئن بهذا الراي الا بعد ان تاملت في جميع اقسام القرآن حتى تبين لي انها
دلائل ولم يدلي علي الا القرآن من وجوه عديدة كما مر ذكرها آنفا. والسبب
الثالث، وهو مدار الاولين انهم لما وجدوا قسم بالله تعالى وشعاره شاعرا
غلب على ظنهم ان ذلك اصله فاذا وجدوا القسم بغيره جعلوه مجازا ثم رأوا ان
المجاز لا يصر اليه الا اذا تعذرت الحقيقة ولكن محض الكثرة ليس دليل الاصلية
ولا المصير الى المجاز مشروط بتعذر الحقيقة بل الصواب ان تاخذ من المعاني
ما هو احسن واخرى واشبه بالسياق وما له نظائر في باقي الكلام. فلما جعلوا الفرع
اصلا خفي عليهم حقيقة معنى لقسم بالشئ وهو الاشهاد به فقولهم في بعض الاقسام انها
دلائل لم يكن الا لشدة وضوح هذا المراد فيها كانت القرآن دعاهم بصوت جهوي
وجذبهم ببطش قسوري الى صحيح معناه ومع ذلك هم على انظن الاول فلم يكن
التخار من جمة القرآن بل من بعض انظن منهم عفا الله عنهم والسبب الرابع شهرة
بعض امور ذات وجوه على وجه خاص مثل قصة هلاك فرعون وقومه فان المشهور
انهم اهلكوا بمحض الماء ولا يرون فيه دخلا للريح وحقيقة الامر ان كان من عجائب
تصار لفيها بامر ربها وبهذا الامر في طوفان نوح عليه السلام كما بيناه في تفسير سورة

والذاتية فهما كانت المناسبة بين المقسم به والمقسم عليها منوطة ببعض هذه الوجوه
خفي وجه الاستدلال على من خفي عليه ذلك الوجه. ولما لم يكن تفصيل هذه بقصص
من مهمات العقائد والاحكام لم يلتفت اليها علماؤنا رحمهم الله تعالى -
والسبب المخاصم وهو يشبه ما قبله ان علماؤنا رحمهم الله تعالى شغلتهم العلوم
العقلية والنقلية المشهورة عن علوم هي اكبر منها نفعا في التفسير - وذلك هو علم لسان
اوحى به اليها والى من قبلنا وتاريخ هذه الامم السامية وعلومهم وآدابهم. واذ هي
لا تختص بمسئلة تقسم لا ينسب القول فيها ولا حاجة الى استقصار اسباب الخفاء
فليكن هذا القدر منها -

ذكر بعض ما في تقسيم من ابواب البلاغة ولطائفها

(١٤) نللك تقول ان كانت هذه الاقسام دلائل لا غير فلم لا ذكرت على
اسلوب الاحتجاج الصريح فأعلم ان الاستدلال اذا كان على امور لا تتعلق بها
الرغبة والنفرة مثل ما ترمى في العلوم الطبيعية والرياضية او في تاريخ الاولين على الاكثر
كان ذكر الادلة فيها اولى بالتصريح فاما اذا استدللنا على امور نفسانية يتصادم فيها
من القائل والسامع حث واستنكار وزجر دستكبار والكاح واصرار، احتجنا الى
ايراد الادلة على دجوه مختلفة من اساليب الكلام متفاوتة في الوضاحة واللطافة
والقوة والحدة - وربما تبدل الاسلوب لمحض الاجتناب عن ملال السامع او لرجاء
ان ينجح فيه بعض الاساليب اكثر من بعض كما صحح به القرآن "انظر كيف نصرف الآيات
نعلم يفقهون" وكما فعل ابراهيم عليه السلام مع الذي حابه في ربه فترك الاصرار
على الدليل الاول حين لم يفهمه نخضم وعد الى دليل آخر اقرب الى فهمه "فهت الذي
كفر" فهذه جملة الجواب - ثم في اسلوب تقسيم معان مفيدة للاستدلال ما يفتح

عليه من البلاغة ابوابا ويلقى عليه من المحاسن جليبا. ونذكر ههنا بعض تلك المعاني
ونمدك الى ما فيه من البلاغة الاول هو اظهار التاكيد والجد في القول كما ترى في
قول المرسلين من النصارى حيث جاء في القرآن "قالوا ربنا يعلم انا ايكم لمرسلون
وما علينا الا البلاغ المبين" او كما ترى في قوله تعالى "والسماوات الربيع، والارض
ذات الصدع، انه لقول فصل، وما هو بالهزل"؛ وقد علموا ان الحزم المذهب او القسم
على امر فقد بالغ في اظهار الجدمه ونفى عن نفسه الهزل ولذلك كثر القسم في اوائل النبوة
حتى تبين لهم جده وقد صح في المثالين المذكورين وذلك لخصوصيته في اسلوب القسم
لان فيه تعظيما كما ترى تاكيدا لاثبات والاظهار باسلوب الاستفهام او التعجب
في اكثر الالاسته او تاكيد التعجب بالنداء كقولك يا للهار "ويا لقومي للشباب بسبك"
والثاني كون القسم اشارة وذلك يهيم طريق الاشارة على الخصم فانه ان اشار انكر جواب
القسم كونه خيرا ولكن لا يسخر له ان ينكر نفس القسم كونه اشارة كما انه لا يتوجه
الى انكار الصفة مع انها في الحقيقة من الاخبار وربما يجمع اقسام القرآن هذين الخبرين
كالقسم بالقرآن المجيد وباليوم الموعود وبالقسمات امرا وبالفارقات فقا وبالصافا
صفا فان شهما رايت فيها جملتين خبريتين مثلا ان الملائكة صافون كالعبيد
وان الرياح تفرق وتميز حسب امر الله وان لم يوما موعودا. وان هذا القرآن مجيد
فهذه اخبار او محبت في الصفات ثم زد عليها ما ادرجت من القسم وهي ان هذه
الاشياء شواهد ودلائل. فان كان ذلك مما ينتبهه الخصم لانكاره فتارة يصر
الخطاب الى النبي كقوله تعالى "ليس؛ والقرآن الحكيم؛ انك لمن المرسلين"
وتارة يحذف جواب القسم الذي يكون جملة خبرية فحينئذ يكتبى بالقسم به ويبادرهم
بكلام آخر مويد لما حذف لكيلا يجد الخصم فرصة لتحويل الاشارة الى الخبر فينازع فيه
وكلي يجد الكلام فرصة فيه فيسمع بعد القسم لما ينتظر جوابه فيهم عليه ما لويد الاستدلال

المقصود من الكلام السابق. كقوله تعالى "ص" في القرآن ذي الذكر، بل الذين كفروا
 في غرة وشقاق" فاعتنى بالجملة الاثنا عشرية واجتنب الخبرية وقد فرغ عنها بما ذكر في
 القسم من صفة القرآن كما قيل "قد شهد القرآن انه لذكر ونصح لهم، ثم ذكر من
 خصائصهم ما لا ينكرونها بل يباهون بها واثار الى ان انكارهم ليس الا بحجهم الجاهلية
 وجدالهم بالحق. ومثل ذلك قوله تعالى "ق" في القرآن المجيد في بل عجبوا ان جاءهم
 منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب" اي قد شهد القرآن، انه لنذير مبين من الله
 تعالى بالبعث ولكنهم يكرونه لما يعجبون ان ياتي به منذر منهم. فاما اذا كان القسم ما
 لا يكرونه لم يحذف الجواب كقوله تعالى "حم" والكتب المبين في انا جعلناه قرآنا عربيا
 لعلمكم تعلقون" فيذكر في القسم كونه كتابا مبينا وفي الجواب كونه قرآنا عربيا ولا يكررون
 شيئا منها واما كونه منزلا من الله تعالى فلم يجز به كدعوى على حدة بل جعله اصل الكلام
 بما خالطهم بنفسه فلا يتجه الانكار اليه. هذا. ولولا كراهية الخروج عن موضوعنا لسطنا
 الكلام في حذف جواب القسم وفوائدها وذكرها تحت آيات القسم اولى. والثالث
 ايجاز هذا السلوب للاستدلال فان اللفظ اذا قل تيرا آي المعنى متجردا عن حجه
 فيزيده تنويرا وتأثيرا كما انه اربعت حده وقرب بعده وهذا مما يجعل الاستعارة
 احيانا نابغ من التشبيه ولا حاجة الى توضيح حسن الايجاز فانه بسوط في كتب البلاغة
 وقد بالغ في استحسانه بعض كتاب زماننا فقال ان الايجاز هو البلاغة وتكلف في رده
 جميع المحاسن اليه وانا جعله اصل البلاغة لتشعب افئانه وتقلب الوانه فلم يدخل
 بابا من ابواب البلاغة الى دراي الايجاز ههناك موجودا فقصر النظر عليه ومن
 فوائد الايجاز انه يكتفك ان تجمع دلائل عديدة في قرب بعضها من بعض فاذا دلت
 على امر واحد من جهات مختلفة كن اشده اثره واحكم امره كما ترى في اقسام سور
 الطور والبلد واليتين. فلو فصل فيها الكلام وشرح الادلة لتشتت النظام و

وهنت قوة ويقرب منها اقسام سور الفجر والشمس والليل - هذا - والعرب لذكهم
 وكبرهم كانوا يحبون الايجاز اكثر من اقوام آخر ولذلك لا ترى شيئاً من القرآن
 الا ومعناه او فر من اللفظ فان اظنبت قولاً من وجه او جزء من وجوه آخر ولذلك
 لا تنقضي عجائبه - والرابع اشراك السامع في استنباط الدليل وذلك مما يكسر سورة خصاً
 فانه اذا علم شيئاً بعد التامل فرح به واهتمز له فان لم يتكلم اذا جعل السامع منفصلاً محضاً
 القبه وصار كلامه عليه تظلاً وهذا اذا لم يخالف رايه فاما اذا خالفه اشتهز منه وسد منه
 اذنه ولذلك ربما يستعمل الاستفهام بدل الاخبار كقولك "الاترى ذلك" و"هل
 سمعت هذا" او كما استفهم النبي عليه السلام في خطبة الوداع حيث سألم اي بلدة
 هذا واي شهر هذا واي يوم هذا فذلك يجلب الالتفات وينشط للسمع وقد جمع القرآن
 هذين الامرين في اول سورة الفجر فاشهد بما مور تدعو الفكر الى استنباط الدلائل على
 تدبير الله تعالى وتقديره وصدله ثم اتبع ذلك بقوله "هل في ذلك قسم لذي حجة"
 ومثل ذلك قوله تعالى "والسما والطارق" وما ادرك ما الطارق "النجم الثاقب"
 ورب مستدل حاذق يسوق الخطاب الى الدعوى بسهولة من غير تسفيه رايه حتى
 يظن انه هو الذي اهتدى اليها من قبل نفسه - وهذا مما يصير الكناية احياناً بلغ من
 التصريح - وترى ذلك بنا في اقسام القرآن فانها تعرض على السامع امر يدعو
 الى استعمال عقله وربها تسوقه الى سمت الدعوى بلطافة وتديرج كالقسم بالذاريات
 حتى انتهى الى قوله "فالمقسمات امراً" ومثل ذلك قسمه بالمرسلات عرفاً حتى انتهى الى
 قوله "فالفارقات فرقا" فالملقيات ذكراً: عذرا او نذراً" فلو اتقى عليه اولاً ان ارباب
 تفرق بين قوم وقوم انكر ذلك - والخامس وضع الدليل في غير صورته لكيلا يبادر
 المنكر الى المخاصمة وذلك غير معنى الانشاء الذي مر آنفاً في الوجه الثاني فانه يد
 باب الانكار وهذا انما يذلل عن الخصام ويكونه غير الانشاء تجده باقياً في صورة الخبر

ايضاً مثلاً ان حوت قوله تعالى "والعصر: ان الانسان لفي خسر" وجدت بعد هذا التحويل من الاشارة الى الخبر ايضاً فرقا واضحا بينه وبين صريح الاستدلال وهو ان تقول "ان الانسان لفي خسر لان مر الزمان نقيض العمر" فان هذه الاستدلال مع صحته و ظهوره يدعوا الخصم كحبه الجدل الى الانكار به او بالذمى فينتج منه وهو الاعتماد على الايمان والعمل الصالح فانه يقول "كلا. ان الانسان لفي رنج عظيم فانه يشتري اللذائذ. وليقتني المنى بهذا العمر الذي لا بد ان يفنى" او يقول "كلا، فانه اذا لا بد من السبلى فالتمتع بالشهوات اولى كما قال الملك لفضيل بن حجر لقيطيل

تمتع من الدنيا فانك فان من النشوات والنساء الحسنان

ولا شك ان تلك حجة واخصه ولكن اذا فتح باب الجدل كثر القيل والقال وكما زدت ايضا كما ازداد الخصم جماعا. فيحسن احيانا ان تذبذبه عن وجه النزاع. فان للانسان به ضراوة كفراوة السباع. وكانت العرب اشد الامم جدلا واحدهم مقولا كما قال تعالى "وما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون" وكذلك سماهم قوما لداؤا واعلم ان هذا الوجه والذي قبله مبيحان على لطافة الادلة في الاقسام فانها كما تصرفهم عن الانكار والنزاع فكذاك تشطهم للفكر والاستنباط. والسادس ما يعطى اوائل السور من نضرة بجهتها ورونق ديباجتها فتلعب الاقسام في قسمات السور على الاكثر كالغرة البارقة واما الذي جاء في اشارة السورة فانما هو قليل ومثاله كحجى المطلع في اشارة القصيدة. وليس في كل قسم تزئين ولكنه لما كان مما يستفتح به الكلام جعله سببا لتزئين الفواتح بان صطفى له كلما ان صور على عنوان الكتاب او مثل للعقل في مطلع الخطاب ملا العين والفواد بحسنه وجلالته بل جعل اكثرها من التصوير كمال عظمتها وضيق نطاق الخيال عن سعتها. ولا شئ من اساليب الكلام اصح للتصوير من لقسم فان الذي اقسمت به دعوة كالتشاهد فاوقفته بين يدي الخطاب.

تمثلاً. فلما اراد احد ان يوشى عنوان السور بالوان الصور بدرها باقسام خاصة. فقرأ
احياناً صورة امر واحد كآلهم الكاتب والنجم الثاقب والنخل العايات والريح الذرايا
والملائكة الصافات وتنظر اخرى الى صور عديدة يضمها امراجع بينها كالتين والزيتون
وطور سين والبلد الامين : او كالطور والكتاب المسطور والبيت المعمور والسقف
المرفوع والبحر السجور. او كالشمس والقمر والليل والنهار والارض والسماء والنفس
وغير ذلك مما يدل على احوال او احداث يستدل بها على مسئلة مهمة. ولا منزلة عند
العقل لهذه التصاوير لولا فيها دلائل على امور عظيمة. وهذا الرعاية جانب المستمع كيكلا
يتنفر فيسداذنيه. ومن كمال التبليغ واتمام الحجة تلمين القول وتاليق القلب وقد
امر الله الانبياء بهذا كما قال تعالى لموسى وهارون حين ارسلهما الى فرعون "فقولا له قولاً
لنا لعله يذكر او نخشى" والسابع تقديم الدليل على ذكر الدعوى فيلقى اولاً على الخصم امرا
يوجهه الى سمت لا بد ان يجلبه اللى الدعوى ولكن المنكر اذا علم من قبل ما تريد الاستدلال
عليه اخذ سمثا اخر وتكذب عن الوجه الصحيح فاذا لم تذكر الدعوى يوشك ان توجه اللى
صراط مستقيم فاذا سار على قصد اسيل قدة الى آخر النتيجة ومثال ذلك كلما ذكرنا في التوبة
الرابع والخامس والثامن كون لقسم من جوامع الكلم فان لقسم به لا يذكر معه جهته
الاستدلال فلو ضم به جهته خاصة كان دليلاً واحداً ولكن الشئ الواحد يجمع معاني كثيرة
ووجوه مختلفة وللمتوسم فيه دلائل شتى. وهذا الامر مشترك في ما ذكر من الامور الدالة
على اسلوب الآتية فبجعل شيئاً واحداً موضعاً لاستنباط دلائل كثيرة كما قال تعالى
"الم تر ان الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليركمن من آياته، ان في ذلك لايت كل
صبار شكور؟" كما قال تعالى "وذي الارض آيت للموقنين : وفي انفسكم افلا تبصرون
فن يهسي ما في الارض والنفوس من الآيات الدالة على القدرة والعملة والرحمة
والحكمة ثم على التوحيد والرسالة والمعاد كما فصلناه في كتاب حجج القلان. فاذا

اشهد الله تعالى بعض خلقه ثم ذكر معه من المطالب الدينية التي يستدل عليها ترك
 التماثل ان يستنبط الدلائل من وجوه كثيرة وبعد الاتفاق في المستدل عليه وبعد رعا
 نظام الكلام لا بأس باختلاف الدلائل وطرقه فانها تتنوع وتكثر حسب مدارج الافهام
 والعقول وجعل الله القرآن جم الفوائد لا تنقضي عجائبه كما لا تنقضي عجائب خلقه وحكمة صنعه
 قال عز من قائل "ولوان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعد سبعة ابحر
 ما نفذت كلمت الله ان الله عزيز حكيم" ولكتف بهذا القدر من ابواب البلاغة التي
 تجد في اقسام القرآن وما اردت الاستقصاء ومن يطيقه. وقد تبين مما مر معنى القسم
 ووجوهه وبذلك انقسمت اشبهتان الاخيرتان المهمتان واما شبهة الاولى فاضمحلت
 ايضا لما ذكرنا من حاجة الناس الى القسم وضرورته في عزائم الامور وموقعه في التعاش
 والتعاشر بين الامم والملوك والرعايا كما مر في لفصل السادس والعاشر وقد ورد القسم
 كثيرا في الكتب المقدسة وكلام الرؤساء والبلغار فلم يبق الا ان تبين علة النهي عنه -

الفرق بين ما يحسن وما لا يحسن من القسم

(١٨) لما كان في القسم اما اشهاد بنفس المتكلم او اشهاد بالله تعالى وفي ذلك مخاطبة
 المرء بعزه ودينه لم يحسن التلاعب به فيتجه النهي اليه من ثلاث جهات اما من جهة القسم
 عليه او من جهة القسم به او من كليهما فاما من جهة القسم عليه فمن حلف على امور سخيفة اظهر
 عدم مبالاة بشرف نفسه ولذلك جاء في القرآن صيغة المبالغة في شناعة الحلف
 حيث قال تعالى "ولا تطع كل حلاف مبين" فدل على ان من حلف على كل امر جل
 او ذق فقد اهان نفسه سواء حلف بالله او بغيره كالذي يفضب من غير سبب
 او يضحك من غير عجب فهذا من جهة القسم عليه واما من جهة القسم به فاذا اقسم
 عبد قسما دينيا بغير الله تعالى فكأنه اتخذها الها فالمنع عن القسم بغيره تعالى على العموم

سد ابواب الشرك كما يمنع عن السجدة بغيره تعالى او كما يمنع عن نحت الاصنام كما
 جاء في الاحكام العشرة ولذلك جاء في سفر الثانية ص ٦ عدد ١٣ "الرب الهك تقى
 واياه تعبد وباسمه تحلف" وبكذا نبى النبي صلى الله عليه وسلم عن القسم بغير الله تعالى
 واما من جهة كليهما معا فذلك ان القسم بالله تعالى على امور سيخفة - وهذا جمع بين
 قوة المروءة وقلة التقوى معا والى هذا يشير قوله تعالى "ولا تجعلوا الله عرضة لايماكم"
 فمذة هي الوجوه المحظورة في اليمين فاما دون ذلك فلا ينهى عنه لاسيما اذا دعت
 اليه دواعي المعاشرة كما ذكرنا في لفصل السادس والعاشر - وشرعينا قد انزلت لنا
 كافة فرائع حاجات المدن ، وتميز بين دقائق الاحكام وتنظر الى ضعف فطرة
 الانسان كما قال تعالى "يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا" فلا ينبغي فيها
 الشئ المطلق عن امر هو المفزع عند الامر وعزائم الامور التمدنية والدينية كما لا ينبغي
 فيها المواخذة على يمين لم يتعلق بهانية المتكلم بل نطق بها على ما جرت به العادة
 في التجاور فقال تعالى "لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت
 قلوبكم والله غفور حلِيم" وذلك بان الاعمال بالنيات فيمين اللغو وان كانت
 خلاف المروءة لا يؤاخذ عليها لان الرب غفور لعباده يرهمم لضعفهم فلا يؤاخذها منهم
 على كل صغيرة - وهذا الذي ذكرنا يتعلق بالايمان العامة - فاما اقسام القسمة
 فلكون جلها استدلالا لا مخاطرة فيها لشرف ولادين فلا متها معرفة - ثم انها
 على التوحيد والمعاد والرسالة وذلك اعظم الامور جلالة فهو اجدر ما يقسم عليه -
 بل نفس احد اشرف من ان يخاطر بها لهذه الشهادة ام يخاف احد على دينه
 نخوف الكذب فيها - اذ لا دين له - ام هو يستحي من اشهاد الله تعالى على هذه الامور
 ثم قد شهد به الله والملائكة والعالمون فالقسم عليه محمول على حقيقة معنى الشهادة
 التي تبليها الانبياء صراحة فان النبي في عموم تبليغه يقول ان الله تعالى ارسله بعلوه

ويشهد على صدقه وهو يلوذ به ويعتمد عليه ويتخذه وكيلًا على ما يقول وهذه المعاني هي التي تفهم من لقسم باسم كما مر في لفصل العاشر فأتى حرج ان ذكرها بأسلوب القسم ولا يخفى ان لقسم اذا كان من اسم بخلقه وكلماته فلا منطمة فيه للشرك ولا معنى له الا الشهادة الخالية عن معنى التعظيم. وجملة الكلام ان الاعتراض على اقسام القرآن اد على اقسام الانبياء والصلحاء الذين اظهروا باقسامهم توكلهم على اسم وفرارهم اليه واستعانتهم به وكذلك النهي المطلق عن اليمين لم ينشأ الا من قلة التدبر والتمييز بين الامور. هذا. واما ما روى عن مسيح من نهيه عن الكلف مطلقا فلعله خاصة وبنيتها فيما يتلو.

ايضاح ما تجد في الانجيل من النهي المطلق عن الكلف

(١٤) قد علمنا وقد اعترف علماء مسيحين بان اصل الانجيل مفقود وانما في ايدينا تراجم اختلف فيها اقوال مسيح واقوال الرواة. والروايات مختلفة ربما يصاد بعضها بعضا مع اضطراب التون وعدم السند فضلا عن الاتصال والصحة فالالتفات اليها والتعرض لها ليس الا على تقدير تسليم وعلى سبيل التنزل فاعلم ان النهي عن الكلف جار في الخطبة المعروفة بالخطبة الجبلية المذكورة في الانجيل المنسوب الى متى ببعض البسط ولا توجد في مرقس ولا في يوحنا ما خلا بعض الفقرات منها وجاءت في لوقا مختصرة ولاختصاره اخرته ماخذ الاقباسي. فان نظرت في هذه الخطبة وتاملت آياتها ومواقفها تبين لك انه عليه السلام لم يخاطب بها الجمور ولم يجعلها شريعة عوض التوراة بل خص بها تلاميذه واتباعه لمصلحة عظيمة كما ستعلمها اما الدليل على تخصيص من وجوه الاول تصريحه عليه السلام بذلك فان هذه الخطبة في متى مسبوقة متصلة بقوله "فلما جلس تقدم اليه تلاميذه ففتح فاه وعلمهم فقالوا"

وكذلك رواية لوقا تذكر انه اجبى الليل بالصلوة ثم انه دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر وبعد ذلك تقول "ورفع عينيه الى تلاميذه وقال" ثم بدر الخطبة بقوله "طوباكم ايها المساكين لان لكم ملكوت الله، طوباكم ايها البجايح الآن لانكم تشبعون طوباكم اذا ابغضكم الناس واذا افروزكم وعيروكم واخرجوا اسمكم كشرير ولكن ويل لكم ايها الاغنياء لانكم قد نلتتم غواركم، ويل لكم ايها الشباعي لانكم ستجوعون، ويل لكم ايها الضاحكون الآن لانكم ستخزون و تبكون" والثاني ان في هذه الخطبة احكاما لاتليق الا بالمساكين والفقراء فانه عليه السلام كما نبى فيها عن الحكف نبى عن الكثر والاهتمام للغد وحماية النفس عن الظلم وبالغ في ذلك حتى قال "من ضرب على خدك فاعرض له الآخر ايضا ومن اخذ رداك فلا تمنعه ثوبك ايضا وكل من سالك فاعطه ومن اخذ الذي لك فلا تطالبه - والثالث ان في هذه الوصايا حسب ظاهرها نسخا للتواترة وايصح يتجاشى عنه فقال على سبيل دفع دخل مقدر قبل ذكر الوصايا - "لا تظنوا اني جئت لانقض التوراة او الانبياء - ماجئت لانقض بل لاكمل" (متى) ثم دفع دخلا مقدر آخر وهو انه لاكمال في ترك الدنيا باسرها فبين لهم ان هذا كمال اضاني وهو التطهر عن الذنوب بالفرار عن الامتحان وكان ذلك سنته تقليما للذين عجزوا عن كمال اكمل فقال "ليس التلميذ افضل من معلمه بل كل من صار كاملا يكون مثل معلمه" (لوقا) والمبتدعون لم يرضوا بان تكون سنته كما لا اضافيا فزادوا في رواية متى "فكفونوا انتم كالمين كما ان اباكم الذي في السموات كامل" وفي رواية لوقا عوض هذه الجملة "فكفونوا رحما كما ان اباكم ايضا رحيم" هيات هيات اهل يساوى العبد ربه ولكن الحق غالب يبقى على رغم معانديه ويطس على عيونهم فانظر الى تصرحيه بما نبى شائبة الشرك

وبين ان كماله كمال اضافي مما يختص بالفقراء كما جاء في متى ص ١٤ "واذا
 واحد تقدم وقال له ايها المعلم الصالح اى صلاح اعل لتكون في الحياة الابدية" ا
 فقال له لماذا تدعوني صا كما ليس احد صا كما الا واحد وهو الله ولكن ان اردت
 ان تدخل الحياة فاحفظ الوصايا ١٨ فقال له اية الوصايا فقال يسوع لا تقفل
 لا ترن . لا تسرق لا تشهد بالزور . ١٩ اكرم اباك و اباك واحب قريبك كنفسك
 ٢٠ قال له الشاب هذه كلها حفظتها منذ حدثت فماذا يعوزني بعد . ٢١ قال له
 يسوع ان اردت ان تكون كاملا فاذهب وبع املكك واعط الفقراء فيكون لك
 كنز في السماء وتعال اتبعني . ٢٢ فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا لانه كان ذا
 اموال كثيرة ٢٣ فقال يسوع لتلاميذه الحق اقول لكم انه يعسر ان يدخل غني
 الى ملكوت السموات ٢٤ واقول لكم ايضا ان مرور رجل من ثقب ابرة البسر
 من ان يدخل غني الى ملكوت الله " فبين للسائل ان كماله في اتباعه والتجرد
 عن سباب التمدن والظاهر ان هذا ليس بكمال الكاملين الا ترى ان ابراهيم
 وداود و سليمان و يوسف عليهم السلام كانوا ذوي الثروة والكمال في الدين
 معاهل يقال انهم لم يدخلوا ملكوت الله . فبما قلنا نزول شبهة نقض الناموس
 وترفع المخالفة بين التوراة والانجيل . والمآب ان هذه الوصايا ان اريد بها العموم
 والاطلاق تكون مخالفة لسنة الهدي كما برهيم و داود وغيرهما انهم
 قاتلوا وانتصروا واجمعوا الوفرة وفقوه في المواقع المحمودة ولم تكونوا اعيالا على
 الناس . ولدفع هذا الاعتراض زادوني رواية متى ما يحرف الكلام عن معناه
 فقال " طوبى للمساكين بالروح " وكذلك " طوبى للجياع وللعطاش الى البر لانهم
 يشبعون " وهذا لا يبدل باق الكلام الذي فيه الخطاب الى الفقراء والمساكين
 من جهة المال لا من جهة الروح وانما حرفه لانهم لم يفهموا تاويله وسياتيكم

عن قريب - فبين من غير شك ان هذه الاحكام مختصة بامر قد ضلت وقضت
 وطرها وليست شرعية كاملة يترقى بها الانسان الى ذروة الكمال في التمدن و
 تهذيب النفس وهي شرعية الاسلام لما فيه اسلام النفس والمال للهدى تعالى
 اولاً ثم القيام بما في طاعة الرب كما قال تعالى ان الله يشتري من المؤمنين
 نفوسهم واموالهم الآية وذلك بسوط في موضعه فبعد هذا التخصيص لا دليل على
 نفيه عن اليقين مطلقاً وقد علمنا عقلاً ونظراً جوازها والحاجة اليها ونحن مشر مسلمين
 نوقر الانبياء جميعين فلما ناول كلامهم الى ما يخالف العقل او يحط الاخلاق -
 وهذا يتبين كل التبين مما سنذكر في لفصل الآتي من المصلحة العظيمة التي لاجلها
 خصم بهذه الوصايا وانما نذكرها بغاية الايجاز لانها من المسائل بسطها يخرجنا
 عن موضوع هذا الكتاب وهي بسوطة في موضعها.

الحكمة في تخصيص هذه الوصايا باتباعها

(٢٠) مسيحيون لا حاجة لهم الى تطبيق النقل بالعقل فانهم زعموا ان الدين
 وراء العقل ولكن فهم رجال متفلسفين سوا في حماية الدين عن شين كلما
 يشتمر عنه العقل وهم مع ذلك بل لذلك عند انتم دعائمهم من الملاحظة ومنهم
 اسبنوز المتكلم الماهر بالعبرانية - فقبل ان تبين لك ما هو التاويل عندي
 فورد رأي هذا المتكلم في امر هذه الوصايا لتعلم انه يوافقنا في جعلها مخصوصة لامر
 وحالة وتعلم الفرق بين اهل العقول من طائفتي المسيحيين والمسلمين وتعلم ان
 تاويلنا مع ظهور حجة اكر تعظيماً للشرعية وصاحبها زعم اسبنوز ان المسيح عليه السلام
 انما امر بتابعه باحكام فيها التذلل والخضوع للظالمين لانهم كانوا حينئذ مقهورين
 تحت سلطة الجبارين فامرهم بان لا تقاوموا الشر وتعرضوا لخذود اللطنة وامثالها

لا شرافة او حسن اوتدين فيها بل لكونها اصلح بنا لهم - فهذا الرجل مع علمه ووضوحه
في كتب الانبياء واحوالهم اتركبون هذه الوصايا مخصوصة ولكنه لم يبتدأ الى علة
هذا التخصيص فلئن راعى جانب العقل فقد اضاع جانب الشرعية الالهية والمسيح
وحوارية - واما نحن فنقول ان من قرأ هذه نسخ الانجيل بالتامل لا يخفى عليه
ان المسيح عليه السلام انما جاء بشرا بقرب ملكوت الله الظاهر الذي كان عبارة
عن سلطة دينية وقد كان اعطاه اسد اليهود وضيعوه ثم دارت عليهم الدوائر
وكانوا ينتظرونه مرة اخرى لو عد الله بهم فبشرهم المسيح بقربه وعرفه لهم بما شال
كثيرة تطابق مطابقة واضحة بنبوة خاتم النبيين ولما لم يؤمن به جمهور قومه
وآيسه علماء وهم لقساوة قلوبهم وتعبدهم لزخارف الدنيا صطفى من عاصمتهم
البسطاء شرذمة قليلة لم يغلبهم الترف والمحرص لكيلا يعسر عليهم الدخول في ملكوت الله
اذ اظهرو حينئذ يكملون بالشرعية الكاملة فامرهم بوصايا يتقيم على حالة الفقر والمسكنة
ليبقوا على طهارة القلب والتقوى والصبر ليتوب الله عليهم حسب سنة ودعاه
كما هو مبسوط في موضعه وانا اخترنا هذا التاويل لانه يجعل قول المسيح من اعظم
البشرى ونبوة كبرى ولا يخالف العقل ولا النقل وذلك بان انطبق على احوال
المسيحين ووقع عليهم كلما اجرعته - فان طائفة من امته اثرت الفقر ونبتت
المال وطائفة اثرت الدنيا وعيروا والاولين تسميتهم بالفقراء وطردهم - كما بشرهم
المسيح في اول هذه الخطبة - ولم يكن ذنبهم الا انهم اعطوا اموالهم في سبيل الله
والزموا على انفسهم الفقر ولم يتركوا التوراة وحرمتوا الخمر وادجوا النخام ولم يقولوا
بالوهمية المسيح ولم يقبلوا الا الانجيل العبراني الذي ضيعه الآخرون وشنعوا
على بالوس الذي بدل النصرانية وخالف الحواريين وادعى يانه تعلم من المسيح
في الروايا فلما حاجته له الى اتباع تلاميذه - فلما جاء الملكوت المبشر على يد

خاتم النبیین دخل كثيرون من هؤلاء الفقراء وخالفه الاغنياء المستكبرون - و
على ما قلنا شهادات في التوراة والانجيل والقرآن وتايخ مسيحين ولكن بسط
ذلك في كتابنا ملكوت الله وغيره فانما الكلام ههنا جربنا اضطرار فلم يكن الصصح
عنه بالكلية ولا البسطه بالتمام فانه موكول الى موضعه الجدير به وجملة القول ان
نهي المسيح عن اليمين مطلقا كان مخصوصا بالذين كانوا على سنته ولانكر ذلك
فان امره تسلسل عن التمدن بالكلية وجمع جرائمه لملكوت عظيم ينتظره ، يشتم
ويلطم ويلطم فلا يتقم فهو لا يعامل ولا يجادل فلا يقاويل فاي امر يدعو الى الكلف
انما يكون قوله لا لا ونعم نعم - ثم نقول ان نهيته عن القسم كان ايضا مخصوصا
من جهة المقسم عليه كما يظهر من موقع كلامه فاني لا اري انه عليه السلام نهي
عن القسم على الحقائق الدينية لانه عليه السلام نفسه حسب روايته يوحنا
اشهد الله تعالى على صدق رسالتي وهل القسم الا الاشهاد - وكذلك ترى في القران
اقسام صاحبي النصاري المسلمين لتبليغ الحق حيث جاء في سورة يس " قالوا ربنا
يعلم انا ايكم لمرسلون : وما علينا الا ابلاغ المبين : " فقولهم " ربنا يعلم " -
قسم كما مر و هو ظاهر هذا وفي ما مر من الفصول السابقة كفاية ان اشار الله تعالى
لمن اراد جواب شبهات فان يما ذكرنا توفيقا بين النقل والعقل وتصديقا بالتوراة
والانجيل والقرآن - ومما كان من اختلاف فانما هو من جهة الاتمام والتفصيل
واقامة الوسط بين الافراط والتفريط ورعاية التمييز في دقائق الاحكام عند
تشابك النفع والضروة قد رايت كيف راعى القران هذا التمييز في حكم القسم وليس
هذا موضع تفصيله في سائر احكام هذه الشريعة الكاملة ولكن نذكر الان ما لم نذكر من
لحاظ الفرق في استعمال كلمات لقسم حسب مواقعها مما يحسن وما لا يحسن منه
اتماما لما ذكرنا من معاني لقسم وتنبها على طرف آخر من بلاغة القران - وثنا على

بذل الجهد في معرفة اللغة العربية فان بعض الجمل بها يضرب بين المرء -

الفرق في كلمات لقسم حسب مواقعها مما يحسن وما لا يحسن

(٢١) قد تبين عند علماء اللسان اني الالفاظ المرادفة فوفا وكل منها معنى خاصا وحدامحدودا - وقد وجد علماء العربية في القرآن من هذه الفروق ما لا ينتبه له الا الناقد المتبع كاستعمال "الرياح" في موضع النفع "والريح" في موقع الضرر وكاستعمال الأمطار في موقع العذاب فمن هذا الباب مراعاة الفرق بين كلمات القسم بحيث يشير بذلك الى بعض خصائصها. وقد ذكرنا في لفصل الثامن عشر ان لقسم ربما يمين قدر المرء ويذهب بشرفه فانظر كيف يئبه القرآن على هذا الامر باستعمال كلمة الحلف فيمن يصغر نفسه بيمينه ويبلغ حيث لا يبلغ شريف قري في سورة البواحة ذكر لقسم من المنافقين في سبعة مواضع فلم يأت به الا بكلمة الحلف لذنارتهم وكذبهم في اغذارهم وما جارت هذه الكلمة في سائر القرآن الا حيث يشنع لما فيها من قلة البالاة بشرف النفس والترفع الى ما يليقها في الكذب والالكاح ولذلك لما اراد النابتة الغلو في تضرعه عند النعمان بن المنذر قال هـ

حلفت فلم اترك لنفسك ريتي وليس وراة الله للمرء مذموب

فانصح عن غاية الاستكانة وهذا بلغ بية في اظهار الخشية والتذلل وهو ابلغ اشعرا عند الرتبة ولذلك قيل "اشعرهم امرؤ القيس اذا ركب، والاعشى اذا طرب، عشرة اذا غضب، والنابتة اذا ريب" فان صح هذه الخصوصية عندك عرفت قدرها في الدين فانك اذا تجنبت استعمال كلمة الحلف لله تعالى كما ترى المفسرين مناد المرجمين للتوراة لا يبالون بقولهم "حلف الله بكذا" وخصائص باقى كلمات لقسم نحو ذلك الى الفصل السابع لكي تستنبطها مما ذكرنا من معانيها

فان موضوع الكلام بهذا ان القسم لما كان احيانا مذمومًا ذم القرآن حسب
موضعه و دل عليه بكلمة خاصة وهذا من تمام التشريع وكمال التبيين كما قال تعالى
”وتزلنا عليك الكتاب بتيانا لكل شئ وهدى وبشرى للمسلمين“

خاتمة الكتاب

(٢٢١) كل ما ذكرت في الفصول السابقة ليس الا ما يتعلق بمسئلة القسم
من جهة كلية واما تاويل آيات لقسم على تفصيلها فمذكور في مواضعها من التفسير
عبراني في طي الفصول وغضون الاشارة دلت على ملاك امرها وسمت بها. ثم
لم يهمني في هذا الكتاب الا طرف خاص من بحث القسم وهو الذي اشتمت
علي المعترض ومع ذلك ربما قادتني علائق الكلام الى امور تقتضي بسطا وتفصيلا
فجلت جولة الى فتحة من القول حتى اذا سطع الحق وانجابت اشبهة انصرت عن
استقصار البحث لكيلا اخرج عن الموضوع، فصار الكتاب جامعاً بين خطتين
لايجاز والاطناب، وواقعا بين نقطتين الاجال والتفصيل. ويوشك الناظر
استعجب تيمنى مرة بالحصر واخرى بالهدر. فليعلم انه قد اضطرني الى هذا الوضع
شكل المسئلة وصورتها الخاصة. ومع ذلك ما ابرمى نفسي عن الزلة والقرعة
دني ذلك تمام المعذرة - واسأل الله العفو والمغفرة - فانه ارحم الرحمين
”داخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين“